عظمى

النساء

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ/ ٢٠٢٥ م

اسم الكتاب: عظمى النساء | فاطمة الفهرية
المؤلف: محمّد بودجبير الورياغليّ
موضوع الكتاب: تاريخ
عدد الصفحات: ١٤٤ صفحة
عدد الملازم: ٩ ملازم
مقاس الكتاب: ١٧ x ٢٤
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٣٧٧٨
الترقيم الدولي: ٦-٣٤-٨٧٩٦-٩٧٧-٩٧٨

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

محفوظة جميع الحقوق

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

عظمى النساء

(فاطمة الفهرية)

سرديّة تاريخيّة

محمّد بودجبير الورياغليّ

دار البشير

إهداء

إِلَى شَيْمَاء، وَأَيُّ الشَّقَائِقِ كَشَيْمَاء؟!

***

عُظْمَى النِّسَاءِ

{فَاطِمَةُ الْفِهْرِيَّة}

«عاشت في النّصف الأوّل من القرن الثّالث الهجريّ – التّاسع الميلاديّ»

فاطمة الفهريّة (صورة متخَيَّلة)

{وَكَانَتْ فِيهِمُ امْرَأَةٌ مُبَارَكَةٌ صَالِحَةٌ اسْمُهَا فَاطِمَة}

روض القرطاس: ص ٥٤.

{فَكَأَنَّمَا نَبَّهَتْ بِذَلِكَ عَزَائِمَ الْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهَا}

ابن خلدون: ج ٤، ص ٢٠.

***

تقديم

قيمة العمل أثره، وأثره ما يظهر في الأرض وينعكس على الإنسان والحضارة، ولا يختلف اثنان على أنّ مؤسسة تعتبر أقدم مؤسسة جامعيّة عاملة إلى يومنا هذا في العالم عمل عظيم بعيد الأثر، لا في حضارة المغرب أو حضارة الإسلام فحسب، وإنّما في تاريخ البشريّة وحضارتها ككلّ، ونحن -إذ نقف معجبين بهذا الصّرح العلميّ العظيم والمستمرّ في الزّمان- لا نملك إلّا أن نُعجَب بصاحب هذا العمل وواضع حجر أساسه، ويزداد إعجابنا ويتضاعف حينما نعلم أنّ صاحبته امرأة، ثمّ هي امرأة مسلمة، اتّصفت بحسن الدّيانة والصّلاح والبركة والمسارعة في الخيرات، ثمّ هي أيضًا -وهو الأهمّ في اعتبارنا- من نساء القرن الثّالث الهجريّ، أي أنّها عاشت قبل أحد عشر قرنًا من الآن، في تلك القرون التي يظنّ بعضهم جهلًا أنّ المرأة فيها كانت غائبة عن أن يكون لها وجود، فضلًا عن أن تكون مشاركة في بناء الحضارة وصنع التّاريخ.

إنّ استدعاء هذا الكتاب لشخصيّة فاطمة الفهريّة وتقديمها للقارئ ليس في حقيقته مقتصرًا على التّعريف بعظمة عملها المتمثّل في تأسيس أعرق جامعات العالم، وإنّما لفضح صورة كبيرة بدأت تتشكّل مطلع القرن العشرين، وبلغت مداها اليوم مع نظام التّعليب البشريّ،

الـذي تُعتـبر الحـركات النّسـويّة مـن إنتاجاتـه، تلـك الصّـورة المشـوِّهة التـي تصـوّر المـرأة المسـلمة كـذات مغيّبـة ومعطّلـة ومختزلـة ومظلومـة وعاجـزة، وتابعـة للرّجـل في كلّ شـأنها، تضافـرت الثّقافـة والمجتمـع والدّيـن والرّجـل عـلى اعتبارهـا ذاتًـا مأسـورة وناقصـة.

إنّ عـدو المـرأة لم يكـن قـط الدّيـن ولا الرّجـل، ولـن يكونـا، صحيـح أنّ بعـض الفهـوم القـاصرة التـي لا تمثّـل إلّا نفسـها، إضافـة إلى المجتمـع والذّهنيّـة العامّـة والسيّاسـة والاسـتبداد بصفـة عامّـة حالـت في بعـض الأحيـان بـين الفـرد وبـين التّحقّـق والوصـول إلى مـا ينشـده، غـير أنّ هـذا حينـما يكـون فهـو ينسـحب عـلى الفـرد، بـصرف النّظـر عـن جنسـه رجـلًا كان أو امـرأة، أمّـا حينـما تنتفـي هـذه المثبّطـات الظّرفيّـة بتغـيّر الأزمـان، وتُلغـى الحواجـز المكانيّة بالاسـتقلال أو الهجرة أو الانتقـال، وتزول العوائق النّفسـيّة، ويتحـرّر الفـرد مـن أغلال الاسـتبداد بمصـيره، فحينهـا لا يمكن القـول بـأنّ أحـدًا يسـتطيع الحيلولـة بـين المـرأة وبـين مـا ترتضيـه لنفسـها مـن كـمال وتحقّـق، كـذات إنسـانيّة كاملـة الأهليّـة والواجبـات والحقـوق.

تعلّمنـا فاطمـة أنّ أعـداء المـرأة هـم أوّلًا نفسـها، ثـمّ الأغـلال المتخيّلـة التـي تحيـط وعيَهـا بكينونتهـا، ثمّ الأعـداء المتوهّمـون الذين تخـوض ضدّهم حربًـا خرافيّـة، ثـمّ نظـام التّعليـب البـشريّ الـذي يسـعى بـكلّ أدواتـه وإمكانيّاتـه لاجتثاثهـا مـن تربتهـا الدّينيّـة والثّقافيّـة والمجتمعيّـة والأسريّـة التـي تحـدّد قيمهـا وتُنبِـت أساسـاتها الأخلاقيّـة، والتـي أبـدًا لـن تكـون في غيرهـا وبدونهـا إلّا شـيئًا مـن الأشـياء، وسـلعة مـن السّـلع التـي تحمـل تاريـخ صلاحيّـة ينتهـي بانتهـاء الرّغبـة فيهـا؛ فتَفَكَّـرْن بصّركـنّ الله بكـنّ.

السّرديّة

«في الغرب قامت مدينة عالية السّناء، رحبة الفناء، خصبة الأرجاء بمؤسّسها، رفيعة المكانة، سامية القدر، جليلة المنبت، مدينة السّادة الشّرفاء من آل رسول الله الكريم بأرض المغرب، ممّن لا ينازع في صلاحهم وعظيم خيريّتهم منازع، من جاورهم سَعِد ونال فضل الدّنيا بيُمنهم وبركتهم، وفضل الآخرة بخدمتهم وحبّهم، ظلّهم الوريف، ومقعدهم المرضيّ، ومائدتهم العامرة، والنّازل بمدينتهم لا يُضاق به ولا يُقنط منه.

بفاس أرسى الإمام إدريس بن إدريس[١] قاعدة أشمل وأعمّ من القيروان، فبعد أن حارب بلا هوادة أهل الفتن والضّلال والأذى، وأخضع القبائل المحيطة بها، وأدمجهم فيها، وأقبر عوامل التّشغيب في مهدها، نواها داعيًا قبل الشّروع في بنائها: {اللّهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها مستمسكين بالسّنة والجماعة ما أبقيتها[٢]}.

ثمّ دعا النّاس أجمعين لقصدها وإعمارها، وأغراهم بسكناها واستيطانها، فقصدها القاصي والدّاني، والأمازيغيّ والعربيّ، والمسلم

(١) إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ثاني أئمة الأدارسة ومؤسس مدينة فاس، توفي عام ٢١٣هـ.

(٢) روض القرطاس، ص ٣٦.

والذّميّ، ولم تمضِ إلّا سنوات قليلات، حتّى عَمُرت وزكت وظهر طلعها، وغدت آمنة هنيّة مطمئنّة بإذن ربّها، جامعة بين الخيرين، روحًا ومظهرًا، ورزقًا وعلمًا، وجمالًا وأمانًا.

وعمل فيما عاشه من سنوات على تصويبها وتسديدها، فاستقامت على مبنى الكمال، وعرفت مصيرها المزدهر، فلم تجد المدينة مع خليفته أيّ انتكاس أو تراجع، بل إنّ الإمام محمّد بن إدريس[١] سار على سنّة أبيه، وزاد في صرح المدينة لَبِنات، ثمّ جاء ابنه وخليفته عليّ بن محمّد[٢]، فزاد لبنات أخريات، وها هو يحيى بن محمّد[٣] يستكمل مسيرة أخيه وأبيه وجدّه في التّشييد والإعمار، ولا ريب عندي أنّ فاسًا في عهده ستشهد من النّماء ما لم تعرف مع أسلافه، لا لانكشاف حجاب الغيب عن عينيّ، وإنّما لكثرة ما قصدها من أقوام، وحجّ نحوها من أخيار، حاملين معهم خبراتهم وعلومهم ومشاريعهم من سائر البلاد، وخاصة من مدينتنا هذه، ولا بدّ أنّكم سمعتهم عن كمّ المهاجرين من مدينتنا هاته نحوها، وجلّهم من الأعيان المشهورين بالعلم والتّجارة والفروسيّة، ولم أعلم أنّ أحدًا منهم ضاق بها بعد استيطانها، أو غادرها وعاد إلى القيروان بعد أن نزل بساحتها.

(١) محمد بن إدريس بن إدريس، ثالث الأمراء الأدارسة، تقلد الحكم بعد موت أبيه، واستمر فيه إلى أن وافته المنية عام ٢٢١هـ.

(٢) علي بن محمد بن إدريس، رابع الأمراء الأدارسة، تولى الحكم بعد موت أبيه، وبقي فيه إلى أن توفي عام ٢٣٤هـ.

(٣) يحيى بن محمد بن إدريس، خامس الأمراء الأدارسة، تولى بعد موت أخيه، وبقي في الحكم إلى أن توفي بعد عام ٢٤٥هـ على المؤكد، وفي عهده -أو في عهد أخيه علي- هاجرت الأسرة الفهرية إلى فاس، وفي عهده أُنشئ جامع القرويين.

إنّ فاسًا يا بَنيّ -على حداثتها- صرح عظيم يستوعب كلّ مساهمة في تشييده ويخلّدها.

إنّ فاسًا بصمة الزّمان الدّامغة وملمحه الأبديّ.

إنّ فاسًا موئل عائلتنا ومنتهى سعينا.

ولا أخفيكم أنّ فاسًا تسكن أفكاري وعواطفي، وأنّها تناجيني في صلاتي وقيامي وأذكاري ورقادي وسائر أموري، تناديني بصوت كلحن ناي عميق يخترق حشاشتي: أقبل يا محمد، أقبل بروحك ولامسني، أقبل بكلّك وأهلك وولدك، وستنال كلّ خير وطيّب ومرغوب، أقبل يا محمد، وستنال الخلود.

لا أقول لكم هذا يا بَنيّ تنكّرًا لقيروانينا ولا تبرّؤًا منها، بل إقبالًا على تمثّل أكمل للوصف الذي تقتضيه المدن القواعد، المدن المراكز، المدن المنارات، المدن المقاصد، المدن الكونيّة، وقد زرت كثيرًا من المدن في الحجاز والشّام ومصر وإفريقيّا، وسمعت عمّا لم أزر منها كثيرًا، فتكوّنت لديّ خبرة بأصولها ومعادنها وعُقباها، ولا أجازف إن قلت: إنّي صرت قادرًا على قياس إشعاعها وتلمّس روحها، ولفاس روح يا بَنيّ، وأيّ روح.

إنّ القيروان يوم أسّسها جدّنا عقبة بن نافع[١]، إنّما أرادها أن تكون قاعدة لجنده، ومركزًا ينطلق منه في غزواته[٢]، واسمها كاف للدّلالة على معناها الأوّل[٣]، الذي لم يفارقها إلى اليوم.

إنّ ثقل البداية دائمًا ما يرافق المدن النّاشئة ويرسم خطّ تطوّرها، وأنتم ترون العوائق والصّوارف التي تصدّ مدينتنا هذه عن تبوّؤ المرتبة العالية التي نرتضيها لها، فلا هي بمحيطها المضادّ، ولا كلّ الإكراهات التي يعترضها بها، تمنحنا ما نصبو إليه من هناءة، ولا نحن في انفساح مع ما نراه بها من ثورات واضطرابات متكرّرة، كأنّها مواسم مفروضة نلتفت لشواغلنا ونركّز على الإنتاج والعطاء دون صارف يصرفنا وينغص علينا هناءنا[٤]، ولا بدّ لمن يعيش محاطًا بالتّهديد أن يبحث لنفسه ولأهله ولعمله عن حاضنة آمنة تنبت فيها بذرته، وتمتدّ جذوره بمنأى عن العوادي والجوارف ومواسم

(١) عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر، الفهري القرشي، ابن خالة والي مصر عمرو بن العاص، وهو من وجهه نحو إفريقية عام ٢١هـ، في مهمة استطلاعية، ثم عينه أميرًا على برقة عام ٢٣هـ، ثم عاد إلى مصر بعد ذلك، وبقي فيها إلى أواخر عام ٤٩هـ، وهو العام الذي عين فيه واليًا على إفريقية، قبل عَزْله عنها عام ٥٥هـ وتولية أبي المهاجر دينار مكانه، وفي حدود سنة ٦٢هـ أعيد توليته مرة ثانية على إفريقية، ليقوم بالمغامرة التي ستنتهي بوصوله إلى المغرب الأقصى وقتله على يد كسيلة بن ملزم زعيم أوربة عام ٦٤هـ، بعد أن بالغ في إهانة الزعيم الأمازيغي، وقد كان عقبة طيلة مساره رجل حرب دموي في تعامله مع الخصوم والمنافسين على حد سواء، تغلب عليه العنصرية وروح المغامرة والتهور والسعي إلى الفخر والسمعة على سنن أهل الجاهلية، لذلك لم يكن لأعماله العسكرية رغم كثرتها أي أثر إستراتيجي ملموس باستثناء اختطاطه لمدينة القيروان.

(٢) مما قاله عقبة قبل تأسيسه القيروان: (... أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة يجُعل بها عسكر، وتكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر)، رياض النفوس، ج ١، ص ١٠.

(٣) (واختلف في لغة العرب في لفظ القيروان، وقيل: هي موضع اجتماع الناس والجيش، وقيل: محط أثقال الجيش، وقيل: هي الجيش نفسه، والمعنى متقارب)، معالم الإيمان، ج ١، ص ٨.

(٤) لا بد أن الثورات والاضطرابات والفتن التي عرفها عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣)، وكذلك سيرته كانت من الأسباب القوية الداعية لهذه الأسرة الفهرية للتفكير في الهجرة نحو فاس.

الجفاف المتكرّرة، فكيف إذا كانت الحاضنة موجودة، تدعوه بصدق وشوق إلى الانضمام إليها؟ وأنت يا فاطمة[١]، وأختك مريم، وبقية إخوتك بذرتي التي سأبذرها في أرض فاس الدّافئة، وأحتسب عند الله أجركم، وعسى الله أن يتقبّل بذرتي بقبول حسن، وينبتها نباتًا حسنًا».

هكذا كان والدي يملأ أمسيّاتنا بالحديث عن فاس والتّغزّل بها، ولم نكن نبدي نحو ما يقول أيّ تشكّك أو تبرّم أو استثقال، كما لم نجاهره بأيّ نوع من المعارضة لما يعدّه ويرسمه لأسرتنا من مصير؛ ليس لاستبداد عرفناه فيه خوّفنا المصارحة والمعاكسة، وإنّما لنزول كلماته الرّائقة المنتقاة على صدورنا بردًا وسلامًا، وأقصى ما كنّا نبديه له هو السّؤال عن موعد الهجرة وأوان الانتقال المقدّر المكتوب، وكان دائمًا ما يجيبنا بأنّ أجل الهجرة لم يحن، قبل أن يستغرق في خشوع عميق.

فهمت من تجربة والدي، وما كان يتلبّس به من حالات ترتبط بذكره فاس وتفكّره في شأنها، أنّ الهجرة لا تكون دائمًا هجرة جسد يغادر دارًا أو منزلًا أو بلدًا ويحلّ بآخر، ولا انتقاله داخل زمن ضيّق محكوم بعقربين سامّين يفتكان بالأعمار، وإنّما الهجرة هجرة عقل مشغول وخاطر مهموم وبال مستغرَق وقلب مُكاشَف وروح مغلوبة بنوازع المشاهدة، ووالدي وإن كان بجسده في القيروان فإنّه بكلّ ما استوعبه جثمانه من ضمائر مستقرّ بفاس، منذ بدء تردّد اسمها في دارنا أوّل مرّة.

(١) وتكنى بأم البنين.

كان والـدي بأحاديثـه المتكـرّرة عـن فـاس، وكأنّـه يعدّنـا نفسـيًّا للانتقـال إليهـا، كأنّـه ينقـض عـرا القـيروان مـن نسـيجنا ويحيـك لنـا شـعارًا[1] دافئًـا لـن يُنـزع عـن صدورنـا متـى مـا التصـق، وقـد أفلـح لحـدّ بعيـد في ذلـك، فقـد أصبـح مجـرد ذكـر اسـم المدينـة قـادرًا عـلى فصلنـا عن القـيروان وربطنـا بهـذه المدينـة المجسَّـدة في الألفـاظ المنتخبـة التي رسـمتها لنـا شـفتاه، وعـلى الرغـم مـن أنّـه لم يـزر فـاس مـن قبـل، واسـتقى كلّ معرفتـه بهـا مـن المكاتيـب التـي يتبادلهـا مـع أصحابـه المسـتقرّين بهـا، ومـن الأخبـار التـي يرويهـا الطّلبـة والتّجّـار والحجّـاج الفاسـيّون، إلّا أنّ الحـماس الـذي كان يتنـاول بـه موضـوع فـاس ولمعـة العاشـق التـي تعلـو عينيـه، كانـت تـترك في نفوسـنا وقعًـا بالغًـا، وأثـرًا متعاظـمًا.

إنّ العيـش في مكانـين مختلفـين، أحدهمـا منظـور والآخـر متخيّـل، تجربـة تحـدث في النّفـس نزيفًـا مـن الصّـور والأحـلام، ونزوعًـا قويًّـا نحـو تجسـيدها بأيّـة وسـيلة، وأسـتطيع القـول بعـد مـدّة لا تقـاس بالأيّـام: إنّ فاسًـا لم تعـد القاطـرة التـي تجـرّ كيـان والـدي فقـط، بـل كياناتنـا أيضًـا نحـو غايـة كامنـة في الغيـب، غايـة سـيتيح بلوغهـا التّحقّـق التّـام.

***

لم أحتسـب المـدّة التـي مضـت مـن يـوم ذكـرت فـاس في بيتنـا لأوّل مـرّة، واليـوم الـذي جمعنـا فيـه والـدي ليعلمنـا بمسـألة مهمّـة سـتغيّر مجـرى حياتنـا كـما صرّح، أو بالأحـرى ليـزفّ إلينـا الخـبر الـذي سـينهي تمزّقنـا بـين مكانـين، لكنّهـا بـدت يومئـذ مـدّة طويلـة وكافيـة لظهـور بعـض الشّـعيرات البيضـاء في لحيـة والـدي:

(١) الشِّعَارُ: الثوب الذي يلي الجسد، وما فوقه يسمى دثارًا.

– هـو الله أذِنَ، حـان وقـت الهجـرة لمدينـة آل البيـت الكـرام، حـان وقـت مشـاركة إخواننـا وأهلنـا مجـاورة العـترة المباركـة، حـان الوقـت لتشـارك أسرتنـا في بنـاء الـصّرح العظيـم والكيـان القويـم؛ لبنـاء حضـارة ستشـعّ عـلى الأرض، وتحتضـن الإنسـان، وتعـلي ذكـر لا إلـه إلا الله، قوامها دوائـر كثـيرة، وأرجـو الله أن تكـون أسرتنـا دائـرة ينـداح محيطهـا نـورًا، ويشـمل فضلهـا المدينـة ومـا خلفهـا.

– هل جدّ العزم على الهجرة يا أبتِ؟

– جـدّ العـزم بـإذن الله، وقـد اسـتخرت ربِّي ليلـة البارحـة، فلـم يـزدد صـدري إلّا انشراحًـا.

– وهـل سـنهاجر وحدنـا؟ أقصـد ألـن نخـرج في قافلـة كالـلّاتي رأينهنّ يخرجـنّ نحـو فـاس طيلـة هـذي السّـنين الفارطة؟

– لا يـا فاطمـة، يـا بنيّتـي المرضيّـة، إنّ جماعـة كبـيرة مـن أهـل القـيروان قـد اتّفقـوا عـلى الهجـرة إلى فـاس، اليـوم فقـط اجتمعـت بجمـع مـن أعيـان المدينـة وفقهائهـا وتجّارهـا، وتدارسـنا سـبيل الرّحلـة ووسـائلها ومدّتهـا وتكاليفهـا، وانتهينـا إلى اتّفـاق أرضى الجميـع.

– وبفاس أين سننزل؟

– إنّ فاسًـا مدينتـان عظيمتـان، يفصـل بينهـما نهر كبـير؛ الأولى موسـومة بعـدوة الأندلسـيّين، وغالبيّـة سـكّانها مـن مهاجـرة الأندلـس كـما يـدلّ اسـمها، أمّـا الأخـرى فتعـرف بعـدوة القرويّـين[1]، بسـبب أنّ أغلـب سـاكنيها مـن أهـل القـيروان، وفيهـا سـننزل إن شـاء الله تعـالى.

(١) جمع قروي، وهو تخفيف لكلمة «القيروانيين»، نسبة للقيروان، لا للقرية كما قد يذهب الفهم.

- وهل تُرانا -مع كمّ المهاجرين إليها- نجد فيها فسحة للاستقرار، أم سنضطرّ للنّزول بأحد أرباضها؟

- فيها يا بنيّتي اللّبيبة مساحة وفسحة لكلّ مستقرّ ومسافر، ثمّ هل تظنّين أنّ أباك يغفل عن أمر كهذا؟ لن يغادر ركبنا القيروان قبل أن نحدّد منزلنا، ولا تنسي أنّ لنا بفاس أهلًا أصبحوا اليوم بلديّين فاسيّين، خاصة وهم من أول النّازلين بالمدينة زمن الإمام إدريس بن إدريس، وحتى لو لم يكن مكاننا محدّدًا، فإنّ الأمير يحيى بن محمد يكرم كلّ نازل بمدينة جدّه، ويقدّم له كلّ ما يحتاجه حتى يُعَمِّر داره، وتستقرّ نفسه، ويطمئنّ قلبه، وتستقيم معيشته، وإنّ مدينة وسعت المسلم والنّصرانيّ واليهوديّ والعربيّ والأمازيغيّ والأندلسيّ والفارسيّ والكرديّ واللّاجئ وعابر السّبيل لن تضيق بنا، ونحن أهل حضر وأصحاب علم ومال ولله الحمد والمنّة، فلا نخشى من أن نصبح دُولة بين النّاس، أتفهّم تخوّفك يا فاطمة، فنحن مقبلون على حياة ومدينة جديدتين، وأعترف أنّ الحماس جرفني قليلًا نحو فاس حتى غفلت عن إشراككم في كلّ تفاصيل الإعداد للهجرة، وأخللت ببعض واجباتي نحوكم، ونحوك أنت بالتّحديد يا ريحانة قلبي، كوني علّمتك أنّ الاستبداد بالرّأي -حتى لو كان صائبًا- ظلم كبير، وقطعت على نفسي وعدًا ألّا أقطع أمرًا يهمّك أو يهمّ أسرتنا حتى أشاوركم، وآخذ بوصاياكم، وأسمع ما تقولونه فيه.

- كلّا يا أبتِ، لست بالمتخوّفة ولا بالمتردّدة، فقد علّمتني إلى جانب ما قلتَه أنّ الخير في السّبيل التي اختارها الله لنا، وأعلم أنّك لا تخطو

خطـوة إلّا بدلالـة قلبـك المؤمـن، وقلـب المؤمـن دليلـه، ولم أناقشـك في الهجـرة رغبـة منّـي في لومـك أو تثبيطـك أو معاندتـك، أبـدًا، ويشـهد الله أنّ شـيئًا مـن ذلـك لم يخامـر خاطـري، لكنّـي فقـط أردت الاطمئنـان عـلى مـا أعددتـه مـن ترتيبـات، كـما أحببـت مشـاركتك في أمـورك ومتاعبـك وإن بالـرّأي، والله يسـدّد بالـرّأي مـا لا يسـدده بالمجاهـدة، ويعلـم الله أنّي أشـاركك حماسـك، وأدعـم كلّ مـا تختـاره لأسرتنـا.

– فاطمـة، يا لؤلؤة روح أبيها، ما أجمل لباقة قولك وألطف إنباءك. جعلني الله فـداء لـك ولإخوتك، لم تنطقي قط إلّا بما يبلسـم روح أبيك ويشـدّ أزره.

لم تأخـذ التّجهيـزات للهجـرة مـن وقتنـا حيّـزًا كبـيرًا، فقـد شرع والـدي في تصفيـة التزاماتـه الماليّـة ودفـع الحقـوق لأهلهـا منـذ زمـن، أمّـا فيـما يخـصّ ممتلكاتنـا وأغراضنـا، فلـم نحمـل معنـا منهـا إلّا مـا قدّرنـا أنّـه ضروريّ مـن متـاع ومـؤن، فيـما تصدّقنـا بـما ثقُـل حملـه مـن فـرش وأثـاث وحوائـج عـلى مـن حولنـا مـن فقـراء ومسـاكين، والـدّار بيعـت لأحـد التّجـار الموسريـن عـلى أن تسـلّم لـه يـوم خروجنـا منهـا، ثـمّ ودّعنـا جيراننـا وأحبابنـا وأهلنـا، وانضممنـا إلى القافلـة خـارج أسـوار المدينـة.

لم يكـن يخفـى عـلى الأبصـار تحمّـس جميـع مـن فيهـا لهـذه الرّحلـة، كأنّها رحلـة حـجّ، حتّـى مـن الإبـل والخيـول التـي بـدت مفعمـة بالنّشـاط، أتحـنّ هـي أيضًـا لرؤيـة فـاس؟ سـبحان مـن يـزرع الشّـوق حتـى في قلوب العجـماوات، ويحـرّك الخلائـق لمصائـر خفيّـة! ومـا إن اكتمـل النّصـاب والتحـق بالرّكـب جميـع المسـافرين، واسـتوى الجميـع في موقعـه فيـه حتـى نـادى هاتـف الرّحيـل، وأُعطيـت الإشـارة بانطـلاق الرّكـب.

ألقيت على القيروان -وأنا فوق راحلتي- آخر النّظرات، عانقت مبانيها وبساتينها وأبوابها[١] وسورها الطينيّ[٢]، ولا أخفي أنّ الخواطر اجتاحتني وأنا أتملّى منظرها الآسر، وأزفر من صدري آخر نسائمها، واسترجعت الذّاكرة صور الصّبا والاجتماع بالرّحم في مواسم السّرور، وأحسست بحيرة؛ حيرة المتطلّع بعين على ما فات، وأخرى على ما يُستقبَل، وأنا في غمرة حيرتي، وقبل أن يستحوذ الشّجن على قلبي، باغتتني سهوة، سرعان ما غبت بها عن كّل ما أرى وأسمع وأجد وأتذكّر، تجلّت لي فيها غيداء، طيّبة الحُسن غنّاء، رقراقة، كأنّما يجري في وجهها الماء، عليها الحرير والإستبرق والدّيباج، ألقت عليّ الابتسامة، ومسّدت بيدها الحريريّة جبهتي، وأشارت إليّ باتّباعها، فخرجت من تبعاتي واخترقت حجاب العادة خلفها، حتى خلصت إلى روض فسيح حاضر اللّطف، جامع الطّمأنينة، أزليّ النّور، يتملك صاحبه بحال يرقّ عن النّعت والوصف، ويؤنسه بوجد قاطع لكلّ وسواس، ويجذب من الرّوح العوالق والأدران.

أفقت من السّهوة وكأنّي ولدت مرّة جديدة، متأكّدة من هويّة الغيداء، مدركة أنّ فعل الرّوح آكد من فعل القلب، ونوازعها أمكن من نوازعه.

القيروان، يا مسقط الرّأس، يا مدينة الأب والأمّ، يا مرقد المجاهدين والصّالحين، يا مستقرّ العلماء والعاملين، لم نغادركِ لكراهة لك، ولا لضيق نفس بك، ولا لنفور من حضنك، ولا ليأس من

(١) انظر: البكري، ج ٢، ص ١٩٧.

(٢) انظر: البلدان لليعقوبي، ص ١٨٦، والبكري، ج ٢، ص ١٩٧.

أنسك، ولكنّها المصائر تستدعي أصحابها، والنّذر تجذب أرواحهم إلى حيث لا يملكون صدودًا، والأيّام تتحكّم في كلّ ذاهب وجاءٍ، فليحطكِ الله بعنايته، وليودعك يدًا حافظة.

***

كانت هذه أوّل مرّة أسافر فيها سفر الرّحلة، بل أوّل مرّة أجاوز فيها القيروان لغير النّزهة والاستجمام في إحدى حدائقها المتناسلة، ولم أكن أدري بأيّ نظام تسير القوافل، ولا ما يجب عليّ فعله لتزجية هذه الرّحلة، التي سمعت أنّها ستستمرّ أربعين مرحلة[1]، وبعد أن استفسرت والدي عن مقدار المرحلة أجابني أنّها تعادل المسافة التي يقطعها المسافر خلال يوم كامل معتدل من المسير المعتاد على الأقدام، ما يعني أنّ قافلتنا ستحتاج لأربعين يومًا بلياليها على الأقل، ما لم يؤخّرنا مؤخّر أو تعترضنا عقبة، رحلة طويلة، يعلم الله كيف ستكون، فتلوت بعض الآيات الكريمة، وردّدت ما أحفظه من أدعية السّفر، وتركت للتّجربة مهمّة تعليمي ما أنا به جاهلة.

أمّا الرّحلة بأيّامها الطّويلة فلم أكن أحتاج كبير معرفة لأدرك أنّه عليّ الاستعانة عليها بالذّكر وقراءة القرآن، وتأمّل بديع ما خلق الله سبحانه، من أقاليم واسعة، ومدن عامرة، وقرى مطمئنّة، وأسواق نافقة، وغلّات متنوّعة، وخيرات سابغة، وزروع وافرة، وعيون جارية، وأنهار غوادق، وغابات حوادق، وجبال سوامق، وسهول ممتدّة، وتلال مخضرّة، ومخلوقات عجيبة الأشكال، وطيور لا يساميها

(١) انظر أهم محطاتها عند: البكري، ج ٢، ص ٣٢٥، وابن حوقل، ج ١، ص ٨٤.

في الجمال مخلوق، وقد كانت هذه التّلاوات والتّأمّلات والمشاهدات الرّائقة البهيّة كافية لمنع السّأم من التّسلّل إلى نفسي، والزّج بي في حالة من الانبهار بشساعة الكون وتنوّعه وعظمة خالقه، فالحمد لله مزخرف الأرض لكلّ شاكر متفكّر.

أمّا القافلة، فمن أوّل يوم أدركت أنّ لها مقدّمة ومؤخّرة وقلبًا، فأمّا المقدمّة، فتكوّنت من الإبل المحمّلة بقيّم السّلع والحوائج والأمانات والذّخائر، وأمّا المؤخّرة، ففيها بعض الإبل، وأكثرها البغال التي تحمل الأثقال والمؤن، والنّسوة على رواحلهنّ في قلب القافلة وصميمها، محفوفات ببعولتهنّ وإخوانهنّ وأبنائهنّ وآبائهنّ، يصونونهنّ ويتحمّلون عنهنّ مشقّة المسير، وهنّ راكبات لا يصل إليهن حرّ، ولا ينال منهنّ قرّ، ويحوط كامل القافلة الفرسان الشّجعان المتأهّبون للدّفاع عنها بعدّة كاملة وسلاح تامّ، والقافلة أثناء ذلك تسير ملتحمة وفق نظام مضبوط لا يتسرّب إليه الخلل ولا تعرقله مشكلة، سائقها دليلها العالم بالطّرق والمسالك الرّئيسيّة والفرعيّة، والواقف على شأنها أميرها المكلّف بإيصالها إلى وجهتها سالمة غانمة.

أوقات الاستراحة والإناخة والمبيت كان لها هي الأخرى نظام شبيه بنظام سير القافلة، فمنزل النّساء دائمًا قلب القافلة، وحولهنّ تناخ الرّواحل والدّواب وتُنزل الأمتعة وتُنصب الخيام، والنّاس بين من يتوضّأ لصلاته، وبين من يطهّر جسده أو يغسل ملابسه، وبين من يعدّ طعامه، وبين من يصلح مطيّته، وبين من يتسامر مع رفيقه، وبين من ينصب خيمة أو يضرم نارًا، وبين من هدّه التعب

فانهار كالجثّة الهامدة، وأمّا العسس، فينتشرون في كلّ الزّوايا، يتناوبون على العسّ والخفارة بيقظة تثير الدّهشة، وقد تسنّى لي أن أعرف -في أوقات الرّاحة- أنّ القافلة مدينة متحرّكة، ينشأ فيها بين النّاس ما ينشأ بينهم وهم مستقرّون، ويُحتاج فيها لما يُحتاج في المُستقَرّ، لأجل ذلك كان للقافلة مؤذّن يؤذّن، وإمام يؤمّ، وقاضٍ يفصل بين المتنازعين ويفتي في النّوازل، ورقباء يقفون على حقوق أهلها، ولم تكن كما يُظنّ مجموعة نوق ودوابّ تتحرّك برتابة.

هكذا انتقلنا من مدينة إلى أخرى، وارتحلنا من منزل إلى آخر، فهذا سهل فسيح، وهذا سفح جبل بديع، وتلك عين جارية، وهذا وادٍ رقراق، نقضي نهاراتنا متمتّعين بآيات الجمال التي حبا الله بها هذا الجانب المونق من أرض المغرب، ونقضي ليالينا تحت ضياء القمر أو ضوء النّجوم في تأمّل السّماء الصّافية، أو في الذّكر والمسامرات والحديث عمّا مضى ويكون، نبثّ اليقين في قلوب بعضنا، ونسلّي عن أنفسنا باللّهو المباح، ونتفرّس في وجوه من معنا من غرباء المسافرين، فهاته امرأة وحيدة لا يدري إلّا الله سبب سفرها دون محرم أو مرافق، وذاك شيخ أعمى أطلّ على الهرم، ليس معه إلّا فتى يقوده، وهؤلاء قوم أعاجم لا نفقه من أصواتهم العالية حرفًا، وذاك آخر، ليس له دابّة يمتطيها أو متاع يحمله، كلّ وهمّه، كلّ وسيره، كلّ ومصيره، فسبحان الله كيف يشتّت ويؤلّف!

***

في اللّيلة السّابقة ليوم وصولنا إلى فاس جلس والدي إلينا بعض الوقت قبل الاستسلام لرقاد ثقيل، تعشّينا وتضاحكنا ونفّس عنّا بجميل خلقه وخفّة روحه ما عانيناه من مشقّة المسير طوال اليوم، ثمّ أعلمنا بكلّ حبور أنّ ما يفصل بيننا وبين فاس مسيرة نصف يوم، وغدًا -إن شاء الله ويسّر- نكون عند الظّهيرة بها، وكنت قبل أن يخبرنا بقرب وصولنا إليها قد أحسست جاذبيّتها بكلّ جوارحي، وغشيت روحها روحي، كما غشيتها يوم غادرت القيروان.

قضيت يوم المسير ذاك غير مصدّقة أنّ هاته الجبال المكسوة بأشجار الأرز الشّامخة، وهذه القرى الجميلة المتّكئة على سفوح الجبال المزخرفة هي كلّ ما بات يفصلنا عن فاس، وما إن أشرفنا على المدينة، ووقفنا نرمق عن غير بعيد أسوارها حتى اجتاحتني البهجة وعمّني السّرور وتأكّدت من هويّة الغيداء، كما تنبّهت إلى أنّ راحلتي هي الأخرى قد استعادت نشاطها وحيويّتها برؤيتها لأسوار المدينة، وعلمها أنّ فاسًا ستوّفر لها بعض الاستجمام والعلف داخل أحد فنادقها[1].

(١) الفُنْدُقُ: بناية خدمية، تتكون غالبًا من طابقين، يوجه العلوي لاستقبال التجار والمسافرين والغرباء عن المدينة، وتمكينهم من مجموعة من الخدمات كالمبيت والطعام، أما السفلي، فيخصص لإيواء الدواب والاعتناء بها وتخزين السلع، وقامت الفنادق بالمغرب مع ازدهار المدن الكبرى وانتعاش الحركة التجارية بها، ثم تطورت مع الوقت لتستوعب عمليات البيع والشراء والمقايضة وإبرام الصفقات، ومع ازدهار التجارة آثرت بعض الفنادق تحديد أنشطتها في مجال معين، فتوجهت بعضها للتخصص في نوع محدد من الأنشطة التجارية كتجارة الزيت، أو تجارة السكر أو الرقيق، واكتفت بعضها باستقبال الدواب أو الأنعام أو غيرها، فيما وجهت فنادق أخرى خدماتها نحو إيواء المسافرين خاصة، وهذا النوع الأخير يمكن اعتباره النواة التي ستتطور لتصير الفنادق التي نعرفها اليوم، وهذا التطور الكبير التي عرفته الفنادق والدور المهم الذي لعبته بوَّأها منزلة مهمة بين المؤسسات الخدمية بالمغرب، لقرون طويلة، وإلى حدود القرن العشرين، وقد عرفت فاس الفنادق منذ زمن مبكر جدًّا، على أيدي الأدارسة، حتى بلغت ٤٦٩ فندقًا زمن الموحدين، كما يفيد ابن أبي زرع، أما في مدينة أخرى هي سبتة، فأحصى الأنصاري ٣٦٠ فندقًا في العهد المريني، وقس عليهما بقية المدن المغربية الأخرى التي لا تخلو من الفنادق، فحيثما تجولت في مراكش، وسلا، وتطوان، ومكناس ... تجد فندقًا.

وفاس -كما يتراءى للمشرف عليها- مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل[١]، هي قصبة طنجة[٢] في وقتنا هذا؛ لاستقرار الأمراء بها ووفرة تجاراتها[٣]. عليها سور يمنعها، ولها غلاّت كثيرة وخصب، ولها بادية جزيلة الغلاّت من قطن وقمح شعير، ولها مياه كثيرة وسقي يغزر[٤]، نعمها كثيرة، وفواكهها عديدة، وخصبها زائد، وبها في كلّ مكان منها عيون نابعة ومياه جارية، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة، وجهاتها مخضرّة مونقة، وبساتينها عامرة، وحدائقها ملتفّة[٥]، يحفّها الماء والشّجر من جميع جهاتها، وتتخلّل الأنهار أكثر دورها[٦]، وهي -كما فهمت ممّا سمعت وعاينت- مدينتان مقترنتان، بينهما نهر يطرد، وأرحاء تربو على الثلاثة آلاف[٧]، وقناطر، وعدوة القرويّين في غربيّ عدوة الأندلسيّين، وعلى باب دار الرّجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثّمر، وجداول الماء تخترق داره.

(١) البلدان، لليعقوبي، ص ١٩٧، واليعقوبي أول جغرافي تعرض للحديث عن فاس، قريبًا جدًّا من الفترة التي عاشت فيها فاطمة الفهرية بالمدينة.

(٢) طنجة هو اسم الإقليم الواقع بين واد ملوية شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، وبين تامسنا جنوبًا والمتوسّط شمالًا، والذي كان يغطّي النّصف الشمالي من المغرب الأقصى، الذي كان يعتبر كلّ المغرب الحضاري تقريبًا وقتها، في ظل قلة المراكز الحضاريّة جنوبه.

(٣) راجع: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ص ١٨١، وهاته الإشارة الخاطفة التي نصادفها في هذا الكتاب سابقة لإشارة ابن حوقل، الذي زار المغرب حوالي عام ٣٤٠هـ، لكون مؤلف «حدود العالم» المتوفى عام ٣٧٢هـ لم يزر المغرب، وإنما نقل معلوماته عن مصدر أقدم.

(٤) راجع: ابن حوقل، ج ١، ص ٨١.

(٥) نزهة المشتاق، ج ١، ص ٢٤٣.

(٦) المعجب، ص ٢٥٧.

(٧) راجع: البلدان للمسعودي، ص ١٩٧.

وكلتا عدوتي فاس في سفح جبل، والنّهر الّذي بينهما نهر عظيم جدًّا يسمى نهر فاس، شاهدت قبل دخولي المدينة مقدار ما على حافتيه من عمارات جليلة وقرى وضياع ومزارع من حافتيه، وماؤه يأتي من عيون قبلية غزيرة في وسط مرج على مسيرة نصف يوم من فاس، وهو لا يزيد ولا ينقص، ويفيض في النهر المسمى سبو، الذي يفرغ ماؤه في بحر أوقيانوس العظيم[١].

وعدوة الأندلس ماؤها قليل، لكن يشقّها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها، وأمّا مدينة القرويين، فمياهها كثيرة تجري منها في كلّ شارع، وفي كلّ زقاق ساقية، متى شاء أهل الموضع جرّوها فغسلوا مكانهم منها ليلًا، فتصبح أزقّتهم ورحابهم مغسولة، وفي كلّ دار منها -صغيرة كانت أو كبيرة- ساقية ماء نقيًّا كان أو غير نقيّ[٢].

وبفاس أناس من كلّ جنس ودين، جمعتهم المدينة وألّفت بينهم حكمة الأئمة وسماحتهم، ويكفي دلالة على ذلك أنّها أكثر بلاد المغرب يهودًا، يختلفون منها إلى جميع الآفاق[٣]، يتاجرون في سلام وذمّة مصونة دون تضييق أو تعدٍّ.

«فاس، ذات الجبل والوادي، والزّيتون والرّمان، يا قطر النّدى وشمس الرّبيع، يا خريدة الدّهر وزينة البلدان، يا متعة الرّوح وجوهرة الملكوت، يا كعبة المريدين وأنس المحتاجين، يا غاية الجدّ

(١) البلدان لليعقوبي، ص ١٩٧، البكري، ج ٢، ص ٢٩٨.
(٢) نزهة المشتاق: ج ١، ص ٢٤٢.
(٣) البكري: ج ١، ص ٢٤٨، وآثار البلاد، ص ١٠٣، ومعجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٠.

وهمّة القاصد، يا شاهد التّحقّق وسرّ العيان، يا معدن الأسرار وصدق المعنى، يا ركن الإتقان وقاعدة الإحسان، يا هويّة الوجود ومغناطيس الذّوات، يا شيمة القدر وبرهان العجائب، يا من سكن هواها قلبي، وائتلفت بروحي روحها قبل النّعت والكشف والمشاهدة والوصل، الكمال فيك متحقّق، والجمال فيك متجسّد، والطّريقة إليك منجورة، والتّدبير فيك متيسّر، فالحمد لله الذي بلّغنيك يا فاس».

قالها والدي، وهو يجتاز الباب الذي ولجنا المدينة منه.

***

بدخولنا إلى فاس وسيرنا في طرقاتها، أحسست أنّي أعرف هذه المدينة جيدًا، أشاكلها مشاكلة لا مباينة فيها، ليس لأنّنا نزلنا بعدوة أغلب أهلها من القرويّين، ولا لأنّ اللّكنة القرويّة كانت ترنّ في كلّ الأرجاء مرحّبة بنا، ولا لأنّ وصفها الحقيقيّ جاء مطابقًا للصّورة التي رسمتها لها في خاطري، وإنّما لأنّي أدركت ما كان يتحدّث عنه والدي من أنّ للمدن أرواحًا كأرواح البشر، وقد كانت لفاس روح أليفة، روح أنيسة، روح دافئة.

توقّفت القافلة كمحطة أولى في أحد الفنادق؛ حتّى تفرغ ما حمّلته من بضائع بعض التّجار، فاستغلّ والدي ذلك، وتوجّه بمعية بعض الأعيان القرويّين لمقابلة الإمام يحيى بن محمد والسّلام عليه، وما لبثوا أن عادوا وألسنتهم تشيد بحسن استقبال الإمام لهم وطيب خلقه وكرمه وسماحته، وعند عودتهم وجدوا أعيان المدينة من القرويّين

الذين سبقونا إليها في استقبالهم، فتهافت كلّ منهم إلى حضن صاحبه يضمّه ويقبّله ويطمئنّ على صحّته وعافية أهله، قبل أن يسوق كلّ منهم قريبه وصاحبه إلى داره، وأمّا نحن، فكان نصيبنا النّزول عند أحد أهلينا -وهم كثير- بدار كبيرة أعدّها لاستقبالنا، فنزلنا هاته الدّار الكريمة في أتمّ حفاوة وأفخم قِرىً أو أحسن منزل، مكرّمين معزّزين مقدّمين على أهل الدّار في سائر شأننا، والحقيقة أنّنا لم نحسّ طول مدّة نزولنا عندهم بوحشة أو غربة رغم حداثة ورودنا على المدينة، وطول مكوثنا أضيافًا عندهم، وعلى الرغم من أنّ صاحب الدّار -وهو من الأجواد الكرام- طلب من أبي البقاء فيها واعتبارها داره، إلّا أنّ والدي أبى إلّا أن يعمّر داره في البقعة التي عيّنها الإمام يحيى لنزول وفدنا، فأجادها وأحسنها وأنفق عليها ما ينفقه الرّجل الكريم على دار يبنيها لسكنى عياله واستقرار نفسه واستقبال أضيافه، فجاءت محكمة المبنى غاية في الإتقان بديعة الصّنعة، يحسّ كلّ داخل إليها أنّه داخل إحدى جنّات عدن، وما إن تمّ بناؤها وفرشت بجيّد الأثاث حتى ودّعنا مضيفينا وشكرنا معروفهم، وانتقلنا إليها واستقررنا فيها آمنين في غاية الرّغد والنّعماء.

بتعرّفنا على المدينة وخططها وشرائعها وطريقة عيشها، واختلاطنا بأهلها ومساكنتهم تحقّق بالكلّيّة انصهارنا في معدنها، ووافق باطننا باطنها، وظاهرنا ظاهرها، أمّا والدي فصار أكثر شبابًا ونضارة وإقبالًا على العمل والإنتاج، وحينما كنّا نصارحه بفرحنا لرؤيته نشطًا متوقّدًا، كان يتعلّل بموافقة لطيف هواء فاس لمزاجه، ونحن

نعلم تمام العلم أنّ روح المدينة تلبّست به، لا هواؤها اللّطيف، وزاد الإجلال الكبير الذي تمتّع به والدي وسمعته الطّيبة بين النّاس أمورنا يسرًا ومسرّة، وبالعموم فقد غدت حياتنا في فاس مفعمة بالطّمأنينة والأمن والغضارة، لا يعكّر صفوها ثُفل ولا يكدّرها مكروه، حتى نسينا أو كدنا أنّ للدّهر تقلّباتٍ وأحوالًا تعرض لبني آدم على التّوارد، إن سلم من أحدها حورب بالآخر، وإن أعطي أحد المحابّ فليستعدّ لاستقبال أحد المكاره، لقوله سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأمْوَالِ وَالأنْفُسِ وَالثَمَرَاتِ}[1].

وهكذا عرض لنا عارض -ونحن في يسر العيش وغاية السّعادة- بأن أصيب والدي بحمّى شديدة أقعدته عن الحركة وألزمته الفراش، وظننّا في البداية أنّها الحمى الدّارجة التي تصيب أحدنا إن أكل ما لا يناسبه أو تعرّض لضربة شمس، ومع مرور الأيّام واشتدادها عليه أدركنا أنّها ليست حمّى كالتي جرّبها كلّ واحد منّا مرّة في حياته على الأقلّ، وأمام فشل الكمّادات الباردة التي لازمْتُه بها ليل نهار، قرّرنا استدعاء طبيب.

لم يفعل الطّبيب بعد أن فحص وعاين إلّا أن أسرّ لنا بملاحظات سلبيّة عن حالته زادت من تخوّفنا، والتزم بعيادته باستمرار للاطمئنان على حالته، كما وصف له مجموعة من العقاقير والأعشاب لم تجدِ في طرد الحمّى عن جسده أو حتى في إضعاف حدّتها، وما هي إلّا أيام قليلات حتى شحب لونه وضعف جسده من طول السّهر وانعدام

(١) [البقرة: ١٥٥].

الشّهية واتّصال المعاناة، وهو خلال ذلك كلّه صابر لما أصابه محتسب وقوع أجره على الله، لا يفتر لسانه عن ذكر الله والتّجلّد بقراءة القرآن، إلى أن أدرك الهلكة، حينها جمعنا، وقال بصوت واهن متيقّن:

- هتف منادِي الرّحيل، ألا ما أسرع انصرام الحياة الدّنيا، وانكشاف الحقيقة المكنونة! ألا إنّ السّعيد من تزود فيها بما ينفعه في آخرته، والشّقيّ من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأمانيّ.

- ما زال في عمرك بقيّة يا والدي، ستصحّ وترجع كما كنت قويًّا عفيًّا نشطًا.

- لا ينفع مع القضاء أمل يا فاطمةَ أبيها، لم يطل أمل أبيك في الدّنيا، وهو يبيع ويشتري ويمشي في الأسواق، حتى يطول أمله وهو على فراش الموت، مقبل على ذي الجلال والإكرام.

- لا رادّ لما يقضي، ولا معقّب لما يحكم سبحانه، لكنّ الأمل لا ينقطع ما دامت في الرّوح بقيّة.

- ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1]، ما أريد قوله لك ولأخوتك يا فاطمة: إنّي سابقكم إلى جوار الله، وأنتم بي إن شاء الله لاحقون، وإنّي تارك لكم مالًا، يقيكم الحاجة ويغنيكم عن السّؤال، وتارك فيكم ما هو أعظم وأبقى من المال، الدّين والتّقوى وغنى النّفس، يا بَني إنّي ذرأتكم لتقوى الله وإعلاء كلمته، فاتقوا الله في هذا المال، واخدموا به دين ربّكم، ولا تنفقوه فيما يسخطه، ويعلم الله أنّي لم أكتسبه إلّا ممّا

(١) [سبأ: ٥٤].

أحلّ وشرع، ولم أنفقه إلّا فيما أحبّ، فاعملوا فيه بالمعروف، وأنفقوه فيما يرضيه سبحانه، فإنّي عنه محاسب، وأنتم فيه فاعلون، فأحسنوا الفعل، يحسن حساب أبيكم.

ألقى وصيّته وشهّد ووحّد، ثمّ فاضت روحه الطّاهرة تاركة في نفوسنا ثلمة لن تندمل، وحُمل الجسد ودفن في تربة المدينة التي طالما أراد العيش بها والمشاركة في صناعة حضارتها، كأنّ حكمة الله اقتضت أن يموت بعد وصوله إلى فاس، كأنّ مهمّته في الحياة انتهت يوم نقلنا إليها، كأنّ موته ليس إلّا تمهيد لحياتنا نحن بها، حياة يعلم الله ما تكنّه لنا من أسرار، ولا يعلم الغيب إلّا الله، والمقدّر علينا سنعيش لرؤيته وإنفاذه كيف ما كان لا محالة.

***

شيئان يقطعان عن ابن آدم لذاذة العيش: ذكرُه الموت، وفقده الحبيب، وقد رزئنا بهما معًا، كرّ الموت على حين غرّة بجيوشه على سِربنا، وخطف الحبيب في ساعة رضا، وصيّرنا بعد الفرح في ترح، وبعد الحصول في فوْت، وبعد الاعتدال في ميل، وبعد الحركة في سكون، وبعد الرّقاد في سهاد، صدّع قلوبنا، وأسال مآقينا، وأفسد بشاشتنا، وأشحب وجوهنا.

ألقانا موت والدي في بئر سحيقة من الحزن، وهوّة عميقة من الأشجان، ولو أنّ الخلائق كلّها اجتمعت حينئذ ما استطاعت تسليتنا عن مُصابنا وإخراجنا ممّا نحن فيه، ولكنّ الله يسلّم، ويتدارك المهموم

بوهب إلهيّ، والمحزون بجود ربّانيّ، ويلقي في روع عبده الصّبر والتّسليم، ويخرجه من درك الذّهول إلى حضرة الإشهاد، ويوقظه من نوم الغفلة إلى صحوة اليقين، فيعرف أنّ شدائد الزّمان في الألطاف الجارية من الله عليه[١]، ويدرك أنّ الابتلاءات إذا ما قيست بالمعافاة كانت فيها كالذّرّة في البحر، وأيّام العسر على مشقتها وشدّتها على القلوب أقلّ من أن توزن بأعوام اليسر، فيسلّم أمره للذي ما ابتلاه إلّا ليمحّصه، ولم يمحّصه إلّا ليرفعه، ولم يرفعه إلّا لحبّه له، ويقول ما يقوله كلّ مؤمن حقّ مقتدٍ بالنّبي الزّكيّ التّقيّ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا [وَالِدِي[٢]] لَمَحْزُونُونَ[٣]».

بقدر حبّي لوالدي وتعلّقي به، عملت بكلّ ما أوتيت من وعي ببرّ الوالدين على العمل بوصيّته وإبقاء عمله متواترًا حتّى لا ينقطع، فأوجبت على نفسي تخصيص نصيب مفروض من قراءة القرآن والدّعاء بالرّحمة والمغفرة، ووردًا منتظمًا يوميًّا أنوي صدقة فضله لروح والدي، لعلّي أدرك بذلك الصّلاح الذي وجب لكلّ ولد يدعو لوالديه بعد موتهما، مصداقًا للحديث النّبويّ الشّريف.

كما رتّبت قدرًا معلومًا ونصيبًا مفروضًا من مال الله الموروث، أتصدّق به على بعض الأسر الفقيرة المتعفّفة، ولم أوفّر جهدًا في المساهمة

(١) يقول أبو الحسن الشاذلي: (العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه). انظر: لطائف المنن، لابن عطاء الله، ص ١٦٢.

(٢) في الحديث: «يا إبراهيم».

(٣) رواه البخاري، «١٣٠٣» بلفظه، ومسلم «٢٣١٥» وغيرهما.

في أيّ من جِريات الخير التي يعود فضلها على المسلمين، ودعوت الله أن يجعل لوالدي في كلّ عمل خير أعمله وصدقة أتصدّق بها نصيبًا مفروضًا، فاللّهم تقبّل من أَمَتِكَ فاطمة، ووفّقها للخير وأعنها عليه.

***

عرفت فاس خلال السّنوات التّالية لاستقرار أسرتنا بها هجرات كثيرة متوالية، فبين فترة وفترة تصلني أخبار عن جماعة أندلسيّة أو عن أخرى قرْويّة، أو عن أخرى من قبائل أمازيغيّة اختارت فاس دار سكنى واستقرار، هذا دون الأفراد والقوافل الذين يفدون على المدينة يوميًّا للتّجارة أو للعمل وللتّزوّد بالمؤن، وهؤلاء طائفتان، طائفة تغادر آخر النّهار قبل أن توصد المدينة أبوابها، وطائفة تمكث طول مدّة عملها بالمدينة، خاصّة بالفنادق التي بناها الإمام يحيى لإيواء المسافرين والتّجّار، الأمر الذي أدّى لضيق مرافق المدينة بعدوتيها بأهلها، وعدم قدرتها على استيعاب التّضخّم الذي باتت تعرفه، وزادها ضيقًا وضغطًا فقر الأرباض المتنامية للمرافق الأساسيّة المخصوصة بأهلها، واعتماد أهل هذه الأرباض أنفسهم على مرافق المدينة المعدّة أصلًا لخدمة حاجات مجموعة محدودة من النّاس.

إنّ الطّفرة الكبيرة التي عرفتها المدينة في السّنين القليلة الماضية جعلت من توسيعها وتزويدها بمرافق جديدة أمرًا ملحًّا وضروريًّا، وعلى الرغم من أنّ الإمام يحيى يقوم بما يجب عليه من بناء وتجهيز، إلا أنّ أعماله ستبقى قاصرة ولن تكفي على كثرتها في سدّ الحاجة ما لم يندمج جميع أهل فاس المستقرّين بها على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم

لمواكبة التّطوّر الذي تعرفه مدينتهم، ويدرك كلّ فرد منهم -وخاصّة الأعيان وأهل اليسار- أنّ تعمير دار أو حانوت لا ينفع إلّا صاحبه، بينما ينفع الله بتعمير مسجد أو ترصيف طريق أو إنشاء ميضأة أو جرّ سقّاية ماء أو وقف عقار كافّة النّاس مسلمين وغير مسلمين.

إنّ أكبر ما يهدّد المدن ويحول دون بلوغها المنازل العالية أنانيّة أهلها، أجنبيّتهم عنها، اعتبارهم إيّاها مجالًا برّانيًّا، أجنبيًّا، جانبيًّا، مجالًا مشاعًا للاستغلال فقط، كما أنّ انعدام المسؤوليّة نحوه، وخيانته، وجحوده وإهماله، سوس ينخر أيّة مدينة ويحكم عليها بالاختناق والتّعثّر والعور والزّوغان عن السّكّة القويمة التي وضعها عليها بُناتها المؤسّسون.

إنّ فاسًا أحوج ما تكون لأهلها اليوم وهي تُعمّر، ولن يبني فاس إلّا أهلها، إن شمّروا عن السّواعد وأجابوا دعوة باني المدينة الخالدة «حيّ على العَمار، حيّ على النّماء» فستربو المدينة وتعظم حضارتها، وإن آثروا البخل والانكماش على أنفسهم وداخل بيوتهم والإقبال فقط على التّجارة وكنز الأموال فستشيخ في مهدها.

***

كانت أخبار المدينة تصلني عن طريق بلال[1]، وهو غلام نابه يجري في سخرتي، ومن مشاهداتي عندما أخرج إلى السّوق للسّعي في مصلحة أو قضاء غرض، وقد استوعبت ممّا سمعت وشاهدت أنّ

(١) شخصيّة مفترضة.

جامع الشرفاء الذي بناه الإمام إدريس ضاق بأهله واكتظّ حتى لم يعد يسع أهل عدوتنا المستقرّين، حتى في صلاتيِ المغرب والعشاء بعد أن تسكن المدينة ويغادرها الأغراب وأهل البوادي، أمّا في باقي الصّلوات فإنّ الازدحام يبلغ أقصاه، ولا تكفي جماعة واحدة في غالب الأحيان لاستيعاب كلّ المصلّين، وكم كان غريبًا عليّ سماع خبر كهذا! ولم أمنع نفسي من الشّكّ في يقينيته ودقّته حتّى أسأل وأستخبر، وتحيّرت، فكيف لم يصل الخبر إلى الإمام يحيى وهو القائم على المدينة ليقوم بما يلزم من واجب التوسعة؟ وإن شاغله شاغل أهمّ، ولعله كذلك، فكيف استطاع أعيان المدينة تجاهل أمر كهذا دون أن يبادروا للقيام بما عليهم من مسؤولية تجاه إخوانهم المسلمين ممن لا يجدون إلّا الدّعاء والطّلب؟ لا أقطعَ لشك من خبر يقين، والتّصرّف والمبادرة في مواقف كهذه أجدى من الانتظار والتّرقّب.

في اليوم التّالي بعثت مع بلال خبرًا للحاجّ عبد الله القروي[1]، رجل من أهل الإيمان والبركة والصّلاح، كانت له مع أبي صحبة وأخوّة صادقة منزّهة، حجّا بيت الله معًا، وهاجرا من القيروان إلى فاس بأسرتيهما في قافلة واحدة، وقد ورثنا عن أبينا رحم هذا الشّيخ الصالح وبرّ صلته، كما أنّ له في التّجارة وأحوال السّوق خبرة وباعًا وشهرة، وبين النّاس سمعة ومنزلة ووجاهة.

أبديت للشّيخ بعد مجيئه ما يستحقّه من ترحيب واطمأننت على أحواله وصحّته وأهل بيته، ثمّ حاولت الاسترسال معه في حديث،

(١) شخصيّة مفترضة.

بـدأ أوّلًا بذكـر والـدي وصداقتهـا التـي دامـت عقـودًا، وانتهـى للحديـث عـن فـاس، فانتهـزت إيجـادي لـرأس خيـط يوصلنـي للحديـث عـن بُغيتي التـي اسـتدعيته أساسًـا مـن أجلهـا، وبادرتـه:

– أرى أنّ المدينـة اتّسـعت اتسـاعًا كبـيرًا في السّـنين الأخـيرة، وازداد عـدد سـكّانها وروّادهـا.

– هـو مـا قلـتِ، كـما أنّ العـمارة بهـا فشـت، والتّجـارة نمـت، والأرزاق اتّسـعت، وفتـح الله عـلى عبـاده بابًـا موصـول العطـاء.

– الحمـد لله الواهـب الـرّزاق، إنّ كل مـا نحـن فيـه مـن فضـل ربّنـا ورضـاه عنّـا.

– والتزام الإمام يحيى بتطبيق شريعة ربّه واقتفاء سنّة أجداده.

– إنّـما الإمـام جُنّـة، يقاتَـل مـن ورائـه، ويُتقـى بـه ويُقتفـى أثـره، فـإن أصلـح وأقسـط عمـرت البـلاد واسـتقام العبـاد، وإن أهمـل وضـلّ خربت البـلاد وانحـرف أهلهـا.

– حقّـا وصدقًـا، رحـم الله مـن ربّـاكِ، طالمـا شـهد أبـوك: أرشـد ذريّتـي وأحكمهـم فاطمة.

– رحمـه الله وبـارك في عمـرك، لا نفـع لرشـد وحكمـة لم يثمـرا عمـلًا ينفـع الخلائـق ويـضيء قَتـام ليلهـم.

– صدقـتِ والله، خاصّـة في زمـن تبرّجـت فيـه الدّنيا وسـلبت ألباب كثير مـن النّـاس وضمائرهـم، حتـى غفلـوا عـمّا عهـد الله بـه إليهـم، وما قـرّره في

حـقّ أغنيائهـم مـن سـنن ومندوبـات وواجبـات عجـز ذوو الفقـر والحاجة عـن القيـام بهـا كـما يتمنّـون ويرجـون، فاكتفـوا بالطّلـب والدّعـاء أن يفيـق الغافـل مـن غفلتـه، ويحقّـق الغنـيّ سـنّة الله فيـما اسـتعمله فيـه مـن مـال.

- وأغنياء مدينتنا، هل في ذكر هم أم في غفلة؟

- أخشـى أنّ أغلبهـم -كـما يقـول المثـل- فطـن متغافـل، لا أقـول يمنعـون زكـوات أموالهـم، لكـن الله يحـبّ الإنفـاق والصّدقـة.

- وأهـل الإنفـاق ضيـوف الرّحمـن، كرَّمهـم بدعوتـه، فمـن اسـتجاب نـال الجائـزة الكـبرى، {و﴿مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾[1]، وكلّ إنسـان ينفـق بـما يسـتطيع، ولا أظـنّ قـادرًا عـلى خدمـة دينـه وكشـف كُـرب إخوانـه يتأخّـر أو يـتردّد إن عـرف ووعـى مـا عليـه مـن حـقّ أو منـدوب.

- قد عرف الجميع، لكنّ أحدًا لم يبادر.

- يبادر إلى ماذا؟

- إلى التّوسعة على المسلمين.

- وهل المسلمون في ضيق؟!

- ضيق والله، وإن لم يعتبره كذلك.

- وما وجه هذا الضّيق؟ أفصح يا عمّاه.

(١) [محمد: ٣٨].

- المسألة وما فيها أن جامع الشّرفاء ضاق بالمسلمين ولم يعد يكفيهم، رغم حرصهم على التّزاحم واستغلال كلّ حيّز ممكن لقيام أحدهم، ففي الأيّام الصّائفة تفرش الحصائر وتقام الصّفوف خارج المسجد، وهو حلّ تعرض له عوارض المناخ، ويحول بينه البرد والمطر والشّمس الحارقة، ولا يخفى ما يلحق النّاس حينها -وفيهم الواهن والعاجز والسّقيم والشّيخ الكبير- من مشقّة ومعاناة، وفي أحيان كثيرة يُحرم فريق كبير منهم الجماعة ويفوتهم أجرها.

- صحيح إذن ما سمعتُ، ولِمَ لم تخبرني قبل؟ أولم أوصك؟

- أعرف سبل الخير التي تجرين فيها كالسّلسبيل، وأغراض النّاس التي تقضينها في السّرّ والعلانية، فلم أرد تحميلك عبئًا، غيرُك من أعيان المدينة أقدر وأولى على التّصدر له والقيام به.

- إنّما هي هداية وتوفيق يا عمّ، وليست قدرة فقط، والنّساء كما الرّجال في الفضل سواء، شقائق في الحقّ والواجب، لا قوامة في الخير، من قدر فعليه أن يسدّ، ومن أصابه داء الخور فلن يغني عنه جنسه شيئًا، وأذكر هنا كلامًا لوالدي -رحمه الله- قال فيه: «إنّ أيّة أمّة لا تقوم بتكاتف السّواعد وعزائم الرّجال والنّساء هي أمّة معطوبة، مترنّحة الخطوات».

- اعذري عمّك الشّيخ، فلربّما خانه التّعبير، ولتعتبري عدم إخباري إيّاك قبل اليوم بحال المسلمين في مسجدهم تقصيرًا في حقّ الوعد الذي قطعته لكِ بأن أبقيك على علم بكلّ باب خير يفتح أيّتها المسارعة في الخيرات.

- العفو يا عماه، أنت عندي بمنزلة الوالد، وما استدعيتك اليوم إلّا لأنّي أثق بك وأدرك رحابة نفسك، لقد سبق إلى علمي كلّ ما حدّثتنيه اليوم، لكنّي أردت الاستيثاق والتّحقيق والدّقّة، حتى يرتاح خاطري وأمضي فيما عزمت عليه.

- وما عزمك أي بُنيّة؟

- عزمت بناء مسجد لوجه الله تعالى، يكون وقفًا للمسلمين وحصنًا للإسلام إلى أن يشاء الله.

- «مَنْ بَنَى مسجِدًا، يَبْتَغِي بِهِ وجَهَ الله، بَنَى اللهُ لَهُ مثْلَهُ في الجنَّة[1]»، ما أعظم عزمكِ وهمّتك!

- ولكنّي سأحتاج مساعدتك.

- ما أسعدني إن جريت في هاته الخيريّة العارمة! اعتبري عمّك عبد الله خادمًا لك حتى يتمّ هذا البناء وتقام فيه أوّل صلاة.

- أستأذنك إذن في معاينة أرض للبناء.

- من الغد سأشرع في البحث عن أرض تصلح.

- لا داعي للبحث، فالأرض موجودة، ما أحتاجه هو معاينتك لها واستخلاصها من صاحبها.

- وأين توجد الأرض؟

(١) أخرجه البخاري، «٤٣٩»، ومسلم، «٥٣٣»، وغيرهما.

- بحذاء دارنا، أرض كبيرة يتّخذها صاحبها حائطًا يزرع فيه الخضر[1]، وله فيه أشجار مثمرة، أريد أن تستقصي أمر أرضه أوّلاً، وكيف صارت إليه؟ ثمّ استعلم عن أمره، مع أنّنا لم نرَ من جواره إلّا خيرًا، وإن أحسست أدنى شبهة في أرضه أو عرفت عنه ما يسوؤك فلا تقصده، أمّا لو اطمأننت لخبره وطيب سمعته وتيقّنت حيازته الأرض بوجه شرعيّ فامضِ إليه، وأنت أعلم منّي بكيفية مفاتحته في موضوع الأرض، فإن رأيت فيه يسرًا فاعرض عليه بيعها، وأرضِ خاطره بما يطلب، ولا تلحّ عليه في المساومة، تنزيهًا لعملية الشّراء من أيّ تعلّق قلبيّ، فالمال مال الله، وما نحن إلّا مستعملون فيه، ومن يقرض الله قرضًا حسنًا يضاعفه له يوم القيامة أضعافًا كثيرة، ولا تعلن له عن نيّتنا في بناء مسجد بها، فقد يكون من أهل التّقوى فتمنعه تقواه من استيفاء حقّ الأرض كاملًا.

- ولماذا نحجزه إن أحب التّنازل عن الأرض أو المساهمة في المشروع بتخفيض الثّمن؟

- تجنّبًا لإحراجه، فقد يكون ذا تعفّف ولكنّه ذو حاجة، أمّا إن بدا لك منه رفض أو تبرّم، أو حتى غلظة واكفهرار فأعرض عنه، لا تطيّرًا ولا تشاؤمًا، ولكنّي وضعت شروطًا للأرض أحبّ أن تُستوفى، فلا يليق ببيت سيذكر اسم الله فيه أن يبنى بأرض سبقت إليها أو خالطتها أدنى شبهة.

(١) جني زهرة الآس، ص ٤٦.

- إنّ قداسة البيت الذي سيبنى تنزّه الأرض عن كلّ شبهة، بقع عديدة في مغارب الأرض ومشارقها تحوّلت بعد دخول الإسلام إليها من أماكن يُشرك فيها مع الله ويُسجد بها لغيره وتمارس فيها أصناف الفساد إلى أماكن يعبد فيها الله ويذكر فيها اسمه.

- تلك أراض طهّرتها دماء الشّهداء، أمّا الأرض التي أنوي شراءها فسأدفع ثمنها من حرّ المال وأنْزهه، وقد عاهدت الله ألّا أصرف في هذا البناء إلّا ما ورثته عن والدي، والإرث أنزه المال وأطهره، ولا أشرك فيه فلسًا واحدًا قد تكون علقت به إحدى شبه التّجارة، ولا أدخل في البناء ذرّة رمل ولا قطرة ماء لم أتحرَّ مصدرها، فإن كان عهدي وهذه نيّتي في البناء والتّعمير، فالأرض التي سينبت فيها البناء أولى بالتحرّز والاحتياط.

- إن كان هكذا فلا أملك إلّا السّمع والطّاعة والمسارعة إلى التّنفيذ.

غادر الشّيخ عبد الله بعد أن دعا وودّع، والحبور يشعّ من وجهه الأبلج، أن اختاره الله للسّعي في هذا العمل المبرور، فيما دعوت أنا الله أن ييسّر لنا هاته الأرض إن كان فيها صلاح ويمن، وفي نفسي رغبة جامحة لتدشين التّعمير في أقرب أجل، إذ ليس أقبح للعمل إذا نُوي له من التّسويف وطول الأمل، بل إنّ التّسويف بعد العزم علامة الحمق والرّعونة، وانتهاز فرصة العمل ومبادرة العمر الجاري عين العقل وأوج الكياسة، فكلّ يوم يفوت من عمر الإنسان لا عوض له، وكلّ يوم يحصل لا قيمة له بدون شغله بعمل صالح نافع، كما أنّ الإنسان لا يأمن -إن هو لم يبادر نفسه- تقلّب قلبه، أو ذهاب

صحّته، أو انشغاله بفتنة أو بلوى، أو هجوم الموت عليه على حين غرّة، والواجب عليه أن يقطع الوقت قبل أن يقطعه، ويغتنمه قبل أن يأسره، ويخالف كسله وحرصه وبخله، ويبادر إلى خدمة الله بنفع أمّته وبلاده، فتلك هي السّعادة لمن عرفها، والغنى لمن خبره.

***

مرّت ليلتان رأيت فيهما والدي في المنام، مرّتان كان فيهما حسن البِشر جميل الطّلة، عليه لباس من سندس وإستبرق، بإحدى يديه مشكاة تشعّ كالشّمس الصّافية، وفي الأخرى كتاب أو صحيفة، وهو مرتقٍ سلّم صومعة بيضاء عالية، وما إن اعتلاها حتى التفت إليّ ونظر نحوي نظرة رضا، وابتسم.

تركت هاته الرّؤيا المتكرّرة في نفسي أثرًا طيّبًا، وزاد انشراحي لها بعد أن جاءني في اليوم التّالي الشّيخ القرويّ مسرورًا؛ ليزف إليّ بشرى الأرض وخبر صاحبها:

- الأرض لرجل من هوّارة[1]، أرض موروثة لا شبهة فيها، حازها أبوه بالوجه الشّرعيّ، أيّام الإمام إدريس بن إدريس[2]، والرّجل -كما علمت- يفلح جزءًا من الأرض كما قلتِ، ويستخرج من جوف الجزء الآخر حجر الجير[3]، ويبيع منه بقدر ما يكفيه ويعفّه عن السّؤال.

(١) هوارة قبيلة أمازيغية من القبائل البرنسية الثلاثة الكبرى التي انتشرت بطونها في كل بلاد المغرب الكبير. راجع: ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٢.

(٢) جني زهرة الآس، ص ٤٦.

(٣) روض القرطاس، ص ٥٤.

- وهل أبدى الرّجل أيّة علامة عن رغبته في بيع الأرض؟

- الحقيقة أنّ الأمر كان أيسر مما ظننت، فالرّجل من سذاجته[١] وصفاء طويّته أطلعني بعد حديث دار بيني وبينه عن نيّته بيع الأرض والانتقال إلى أحواز فاس، حيث يمكنه شراء أرض أكبر وأصلح من أرضه، يفلحها ويعيش حياة يرتاح لها، ما مهّد لي تقديم عرض رضيته ورضيه بقلب مطمئنّ.

- هذه بشارة خير، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢]، الحمد لله ربّ العالمين.

ناولت الشّيخ الثّمن الذي تراضى عليه مع الهوّاريّ حتى يدفعه إليه بعد أن نوثّق عقد الشّراء عند العدول. وما إن أصبحت الأرض في ملكيّتي حتى رأيت أنّ الشّروع في أيّة أعمال دون مطالعة الإمام يحيى أمر لا أدب ولا لياقة فيه، فاستأذنت الشّيخ عبد الله أن يسير إلى دار الإمارة ويطلع الإمام على نيّتنا وعزمنا، ويطلب إذنه لبدء الأشغال ومباركته للعمل، ولم يتأخّر الشّيخ ليعود لإبلاغي بما يحفّز النّفس ويشحذ الهمّة، فالإمام كما أخبرني الشّيخ سرّ بما علم، وبارك عزمنا، وأثنى على مبادرتنا، وشكر سعينا ودعا لنا باليسر والمعونة، وقال بالحرف: «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[٣]،

(١) بمعنى البساطة وسلامة النية وسهولة الخلق.

(٢) [البقرة: ١٨٥].

(٣) سورة التوبة - الآية ١٨.

إنّ فعل الخير لا يحتاج إذنًا، لأنّ المبادر للخير مقبل على الله مبادر للجنّة»، ثمّ عرض على الشّيخ المعونة بكلّ يلزم، فوعده الشّيخ -كما أوصيته- بلباقة بالعودة إليه متى ما احتاج العمل مساهمة منه أو مساعدة، وأخبره أنّ مباركة آل البيت الأطهار أعظم وأهمّ.

استبشرت بالكلام الذي حمله الشّيخ إليّ من الإمام يحيى، ونزل وقعه على صدري بردًا وسلامًا، فأفضل وسيلة نستفتح بها هذا العمل المبرور -بعد النّيّة الصّادقة في جعله خالصًا لوجه الواحد الأحد- مباركة سليل العترة النّبويّة الشّريفة ودعواته لنا باليسر والتّوفيق.

بعد انقضاء المهلة التي طلبها الهوّاريّ لتفكيك نوّالته[1] وسياجه، ونقل متاعه وأنعامه وأغراضه، صارت الأرض مستعدّة لحمل الشّرف وتقلّد الخلود المندوبة له، وقد كنت حريصة على تدشين العمل فيها بيديّ، وهو ما لم يكن ممكنًا بعد أن يشرع العمّال والفعلة في حفر الأساسات، فخرجت في اللّيلة التي سبقت يوم تدشين العمل، وفي يدي عتلة صغيرة قاصدة الأرض، وشرعت أنبش تربتها النّديّة إلى أن أحدثت بها حفيرة صغيرة، اكتفيت بها واحتسبت أجرها عند ملك

(١) وتجمع على: نوَاول أو نوَايل، وهو نوع من المساكن القارة، اتخُذ لوقت طويل المسكن الرئيسي بكثير من البوادي المغربية، خاصة من قِبل القبائل المنتجعة ونصف مرتحلة بالسهول والهضاب، أما بالجبال، فإنها عادة ما تتخذ كمخدع بالبساتين والعرصات والحقول، يقضي بها الفلاح قيلولته ويحفظ فيها أدواته الفلاحية، وتستعمل في بناء النوالة مواد نباتية بسيطة، فالهيكل غالبًا ما يكون من القصب أو من الأغصان المرنة كالدفلى التي يتم تثبتها بأشرطة الدوم (العزف)، بينما يُستعمل الحصيد أو الديس أو البردي أو حتى الطين لكساء الهيكل الخارجي حسب المناطق وقوة الهيكل، ومن حيث الشكل الهندسي فإنها تتخذ أكثر من شكل حسب المناطق، على أن الغالب عليها هو الشكل الأسطواني عند القاعدة المخروطي عند القمة.

الملـوك، ثـمّ وضعـت العتلـة مـن يـدي وقمـت لأصـلّي ركعتـين، قـرأت فيهـما مـا شـاء الله لي، وبعـد السّـلام جلسـت رافعـة يـديّ إلى السّـماء أدعـو الله أن ييسّر أمـري ويعينني عـلى القيـام بواجـب بيتـه أتـمّ قيـام، ويمـدّ في عمـري حتـى يكمـل هـذا البيـت المبـارك، وأصـلّي فيـه ركعتـي حمد وشـكر أذوق حلاوتهـما، وقبـل أن أقـوم مـن مجلـسي نـذرت للرّحمـن صومًـا لا يقطعـه إلّا عيـدي، وعيـدي يـوم يكمـل بنـاء المسـجد وأصـلّي فيـه ركعتـي الحمـد والشّـكر[1].

إن كانـت معرفـة الهـوّاريّ بي لازمـة لإبـرام العقـد، وإطـلاع الإمـام يحيـى عـلى وقـوفي وراء عمليّـة البنـاء ضروريًّـا؛ لكونـه إمامنـا وأميرنـا، ولـه علينـا واجـب الإعـلام وطلـب الرّخصـة، فـإنّي قـرّرت البقـاء بعيـدة عـين أعـين النّـاس، مسـترة تحـت مسـمى فاعـل خـير، وألّا أظهـر إلّا بـما تقتضيـه ضرورة كإبـرام عقـد أو إبـراء ذمّـة أو مـا شـابه هـذا، عـلى أن أجعـل كلّ تعامـلاتي مـع البنّائـين والحرفيّـين وأصحـاب السّـلع والمـوادّ عـبر واسـطة الشّـيخ عبـد الله حـصرًا، وليـس هـذا منّـي ترفّعًـا عـلى البسـطاء مـن المياومـين، ولا تجنّبًـا للاختـلاط بهـم ومناولتهـم أجورهـم يـدًا بيـد، وإنّـما حرصًـا عـلى سـدّ كلّ بـاب قـد يداخلنـي الشّـيطان منـه، فأبغـي عـلى أحـد أو أظلمـه أو أرى منـه مـا لا يعجبنـي، فيكـون ذلك سـببًا لقطـع رزقـه، وأيضًـا -وهـو الأهـمّ عنـدي- حتـى لا أدع فرصـة لامتـزاج عمـلي بحـبّ ظهـور أو ريـاء أو سـمعة تسـير بـين النّـاس وتفسـد عـليّ قلبـي، وأنـا لا أملـك قلبًـا، هـو بـين أصبعـين مـن أصابـع الرّحمـن يحرّكـه

(١) (ولم تزل فاطمة القروية المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم)، روض القرطاس، ص ٥٥.

كيف يشاء، ولا علمًا بما قد تعارضني به الدّنيا من فتن، لكنّي أعلم علم يقين أن ما قد تبنيه نيّة عام ينقضه رياء لحظة، وما قد يُغزل بقوّة، تنقضه أنكاثًا لحظة ضعف أو غفلة.

في اليوم التّالي[١] -بحمد الله تعالى- باشر الفعلة والعمّال عملهم حسب الاتّفاق المبرم سلفًا معهم في تنقية الأرض واجتثاث بعض ما بها من شجر، وإزالة حجارتها الكبيرة، ثمّ أردفت عملهم فؤوس الحفّارين تحفر الأساسات وتشقّ في الأرض الأخاديد، ولم تمرّ إلّا بضعة أيّام حتّى أهلّت بوادر الخير وبشائر التّيسير، فكأن روحًا نُفثت في هذه الأرض الجامدة فاهتزّت فرحًا بحياتها الجديدة، وجادت بما في قلبها من تراب وحجر ورمل أصفر طيّب أغنانا عن جلب غيره من سواها، وكفى حاجة البناء وفَضُل عنه، أمّا الماء، فقد أوحيت للشّيخ احتياطًا من الشّبهة ألّا يستخدم ماء النّهر، وأن يأمر العمّال بحفر بئر[٢] بالأرض، نسقي منها ما يروي غليل العمّال والصّنّاع أيّام الحرّ، ويسدّ حاجة البناء من هذا العنصر الطيّب الذي جعله الله أساس كلّ شيء، وتبقى البئر بعد تمام العمل وقفًا على المسجد يتوضّأ ويشرب منها المصلّون، وعند حفر البئر جادت بحمد الله بماء فيّاض زلال طيّب.

ما إن حُفرت البئر وجهّزت الأساسات، حتى استشرنا العلماء في شأن تحديد القبلة، وعلى ضوء توجيهاتهم شرع البنّاؤون في تعمير

(١) دشنت الأعمال يوم السبت، مستهل شهر رمضان المبارك من عام ٢٤٥/ دجنبر ٨٥٩.

(٢) انغمرت البئر اليوم، ولم يبقَ لها وجود بالجامع، إلا أن موقعها معلوم لدى القيميين على الجامع، ويسمى عندهم بالبئر المغمور(ة). جامع القرويين، ج ١، ص ٤٨.

أساسات الجدران بالحجر المنجور والكذّان[١]، والطّوّابون في تجهيز قوالبهم الخشبيّة الضّروريّة لعمل الطّابية[٢]، وبالهمّة والجدّ في العمل، وإخلاص كلّ عامل في عمله بدأت ملامح المسجد في التّشكّل، وحيطانه في العلوّ مسبّحة الرّبّ الودود، وكم كان مقدار البهجة كبيرًا في نفسي وأنا أرقب هذا البناء المبارك ينمو أمام عينيّ يوما بيوم! فقد حرصت من أوّل أيّام البناء على قصد الأرض والوقوف عليها وقوف المعاين المتفرّج، حريصة على ألّا يُعلم بهويّتي، وقد ساعدني فضول النّاس والمتعة الخفيّة التي يجدونها في التّفرّج على خليّة العمل في تقمّص دور المتفرجّة، وحين أستشكل أمرًا أو أحبّ اقتراح تعديل أو إبداء رأي أو إعطاء توجيه، فإنّي كنت أؤجّله إلى صباح اليوم التّالي، حيث تعوّد الشّيخ عبد الله الورود عليّ كلّ صباح لتسلّم مستحقّات المياومين من عمّال وبنّائين وصنّاع، وحينها أنقل إليه كلّ ما اجتمع لنظري من ملاحظات.

(١) الكَذَّانُ: حِجارةٌ كأنها مدر، فيها رخاوةٌ، وربما كانت نَخْرة.

(٢) تقنية في البناء تكون بإفراغ التراب في قوالب، ودكه حتى يصير جسماً واحدًا، وقد وصف ابن خلدون هذه العملية في مقدمته: (... ومنها البناء بالتراب خاصة، تقام منه حيطان؛ بأن يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولًا وعرضًا باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربعة أذرع، في ذراعين، فينصبان على أساس، وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر بلوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه التراب مخلطًا بالكلس، ويركز بالمراكز حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه، ثم يزاد التراب ثانيًا وثالثًا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسمًا واحدًا، ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى، ويركز كذلك إلى أن يتم وتنتظم الألواح كلها سطرًا فوق سطر، إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحمًا، كأنه قطعة واحدة، ويسمى الطابية وصانعه الطواب)، المقدمة، ج ٢، ص ١٠٤، وتنتشر هذه التقنية في سائر جهات المغرب، وبها بنيت جلّ أسوار المدن المغربية وقصباتها، خاصة في المناطق الجنوبية نظرًا لصلابتها وتكيفها مع المناخ، فهي باردة صيفًا دافئة شتاء، وما تزال التقنية حية مستعملة إلى اليوم بالكيفية التي وصفها بها ابن خلدون، مع تحديث بعض الأدوات والاستعانة ببعض الآليات في الأعمال الكبرى.

في أيّام أخر، كانت تتزامن معاينتي اليوميّة مع زيارة الإمام يحيى لموقع العمل؛ بقصد الرّصد والاطّلاع والوقوف على سير الأشغال وتطوّرها، ودائمًا ما كان يميل على أذن الشّيخ عبد الله مستخبرًا عن سلاسة العمل ومطمئنًّا على كفاية التّمويل، قبل أن يشرف على البنّائين والعمال، ويحضّهم على الإخلاص في هذا العمل المبرور، الذي هو عمل يقع تحت نظر الله قبل العبد، ويختم زيارته بالدّعاء لهم باليسر والعون.

هكذا كانت تجري أيّام العمل في انضباط وجدّ ومثابرة، تبدأ مع انفلاق الصّبح، ولا تنتهي إلّا بعد العصر، تملؤها تكبيرات العمّال والطّوابين مهلّلة ومكبّرة ومصلّية على خاتم النبيئين، مع كلّ حركة يقومون بها، لا يهنون ولا يفترون، لا تتخلّلها انقطاعات إلّا في أوقات الصّلاة والرّاحة، وما كان من أيّام المطر الشّديد، ولا يكدّر صفوها منغصّ أو تعثّر أو طارئ، وكان كلّ شأن المسجد متيسّرًا بصورة مريحة للقلب، وأهل الحيّ يتسابقون على إكرام الفعلة والصّنّاع بألذّ المشارب والوجبات وأتقنها، من عصائر وألبان وثريد وكسكس وطواجن وإدام، فالحمد لله مسخّر العبد للعبد والهادي إلى طرائق البرّ والإحسان.

اعتبر بناء الصّومعة المربّعة الحدث الأكبر من يوم تدشين العمل، فما إن كادت تبرز -على تطامنها[1]- للعيان حتّى كثر المتجمهرون وخاصّة من غير القرويّين، ممن لم يسبق لهم رؤية مسجد بصومعة؛ لمعاينة أوّل صومعة تشيّد بمدينة فاس[2]، وإظهار التّعجب من هذه

(١) (وبنت فيه صومعة غير مرتفعة بموضع القبلة التي على رأس العنزة الآن)، روض القرطاس، ص ٥٥، وقد كانت العادة ألا تبنى للمساجد صوامع بالمرة؛ اقتداء بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) والثالثة بكل بلاد المغرب بعد جامع القيروان وجامع قرطبة.

العنصر الجديد على مساجدهم، وبلغ بهم العجب حدّ التّساؤل: هل يقبل الدّين إنشاء صومعة لمسجد؟ وإن كان جائزًا فلماذا لم يُجعل لمسجدي الأشياخ والأشراف صومعتان؟ وكثر اللّغط، وبدأ المتوثّبون جهلًا على ما لا يعلمون يشيعون جهلهم بين النّاس، حتى إنّ بعضهم وصف العمل جهارًا بالبدعة، ودعا للتّراجع عنها اقتداء بمسجد رسول الله، وقد تصدّى أحد علماء فاس النّبهاء لقطع دابر الخلاف والجدل العقيم بلباقة في خطبة جمعة، وكان ممّا جاء فيها:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، بديع السّماوات والأرضين، المنشئ إيّاهما على غير مثال تقدّم، أمر عباده المؤمنين بالتّعلم، وأوجب على كلّ مسلم نصيبًا معلومًا منه، تسلم به عقيدته من مزالق الشُّبه، وتستقيم به عبادته من الخطأ والفساد، والصّلاة والسّلام على المعلم الهادي النّاسَ إلى النّور، الدّاعي إلى العلم والتّعلّم، القائل في الحديث الشّريف: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ الْأَرْضَ، فَكَانَتْ مِنْهُ طَائِفَةٌ قَبِلَتْ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا نَاسًا فَشَرِبُوا فَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَسْقَوْا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ[1]».

(١) متفق عليه، واللفظ لأحمد من مسنده (١٩٥٧٣).

أمّا بعد، فإنّ الله ترك باب العلم مفتوحًا أمام من وهب نفسه للحبر والدّواة واللّوح، واجتهد في البحث والتّفكّر والاستنباط حتى صار عالمًا معلّمًا، تصلّي عليه النّملة في جحرها والحوت في بحره، ويهتدي النّاس بهديه، ويجدّد للمسلمين أمور دينهم، وقد عرفت بلادنا -ولله الحمد والمنّة- بالإسلام فضلًا كبيرًا، فلولاه لم يكن ليقصد آل البيت الأطهار هذه البلاد الطيّبة، ولا كانت لتكون مدينتنا هذه، ولا مسجدنا هذا، ولا جماعتنا هذه، وما كان المؤمن ليهب أمواله لعمارة بيوت الله وخدمة إخوته المسلمين وفكّ ضيقهم، وكلّكم يعلم بالمسجد الجديد الذي يُبنى بعدوة القرويّين من مدينتنا، وهذا من فضل الله علينا ومنّه أن تكثر بيوت الله ويزداد عددها ويمتد اتّساعها، وما علينا -بعد شكر الله- إلّا أن نشكر للمبادرين للخير، وندعو لهم بحسن المثوبة والجزاء، ولعلّ النّاظر للمسجد الجديد يجده مختلفًا شكلًا عن جامعنا هذا[1]، ومميّزًا عنه بصومعة، ولعلّ نفس النّاظر يقول: إنّ بناء صومعة للمسجد بدعة؛ لأنّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن به صومعة، وهذا صحيح، لكن، هل يعلم القائل ببدعيّة الصّومعة أنّه لم يكن في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم محراب كمحرابكم هذا، ولا فُرُش كفرشكم هذه، ولا سقف كالذي يظلّكم؟ فإن أطلقنا وصف البدعة على كلّ ما أحدثه النّاس لحاجة أو مصلحة أو ضرورة بعد وفاة رسول الله وقعنا في الحرج، وضيّقنا ما وسّعه الله، اعلموا رحمكم الله أنّها ليست كلّ البدعة حرامًا

(١) جامع الأشراف.

أو مكروهًا أو ضلالة، فالبدع منها المباح والمندوب والواجب، فكتابة القرآن والحديث بدعة، لأنّها لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنّ تفرّق الصّحابة في الأمصار وموت الحفّاظ أوجبها حتى لا يضيع العلم ويُصان عن الزّيادة أو النّقصان، ونقط الحرف لم يكن، لكنّه احتيج إليه عندما كثر دخول الأمم والشّعوب والقبائل في دين الله أفواجًا، وأريد تيسير التّعلّم والفهم لهم، والصّوامع لم تكن، لكنّ فشو الإسلام واتّساع رقعته وكثرة مدنه ووفرة أتباعه ألزم بناء مساجد جديدة، بأنماط جديدة تميّزها عن غيرها من بيوت ودور، ومن هذا التّمييز نصب صوامع ومنارات عليها، تهدي الغريب إلى بيت الله، وتدلّ الضّالّ، وتبلغ صوت المؤذّن إذا ارتقاها أقصى أطراف المدينة، وجلّكم يعلم أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- عند فتحه المظفّر لمكّة أمر مؤذّنه بلال بن رباح بالصّعود فوق الكعبة المشرّفة لرفع الأذان، لا لأنّها أشرف مباني مكّة وحسب، بل لأنّها -قبل أيّة علّة أخرى- أعلى مبانيها، ولو علم الرّسول الكريم بمكّة مبنى أعلى من الكعبة لأمر بلالًا بارتقائه ورفع الأذان فوقه، إنّ الرّفع يا معشر المسلمين لا يكون إلّا على مرتفع، إنّ كلّ صومعة هي كعبة في مدينتها وحيّها، تدعو النّاس لتدلّهم على مكّة الأصل، هذه هي الحكمة من رفع الصّوامع، والحكمة ضالّة المسلم، أينما وجدها فهو أحقّ بها، قد عرفتم فاحفظوا، وإن حفظتم فالزموا، وإن لزمتم فلا تنسوا أنّ القلوب أوعية، خيرها أوعاها للعلم».

أجابت خطبة هذا العالم النّابه عن تساؤلات المتحيّرين، وشفت غيظ قلوب غاب عنها التّفقّه والإدراك، وأقبرت الجدال في شأن الصّومعة في مهده، قبل أن يستفحل بين العامّة، ويزيغ بهم نحو إصدار أحكام أو فتاوى، ليسوا لها بأهل.

الآن، وقد بنيت الصّومعة، ونصبت الأساطين، وعلت الجدران، وبان المحراب، وحُدّد عدد البلاطات الموازية لجدار القبلة، وتلك المتقاطعة معها، ومساحة الصّحن، وقاعة الصّلاة، وسقّف كلّ ذلك، فإنّ التّصميم العام للمسجد صار معلِنًا عن ملامحه البارزة، مبشّرًا بقرب تمامه، وفتحه أمام المسلمين للقيام بمهمّته المقدّسة، ولم يبقَ أمام الصّناع إلّا التّبليط وطلاء واجهات الهيكل، وإضافة بعض الزّخارف والجماليّات التي لا تشدّ أبصار المصلّين ولا تفتنهم في صلواتهم، وما إن أتمّوا أعمالهم، وخلّوا البقعة المطهّرة من الرّواسب والأتربة النّاتجة عن عمليّة البناء والصّقل، حتى غادروا بعد أن نالوا المتّفق عليه من أجرة وزيادة، تاركين مكانهم لأهل تَحَصَّارْت[1] لفرش أرضيّة المسجد وتغليف جزء من أعمدته، وما إن أتمّ هؤلاء أيضًا أعمالهم حتّى جاءني الشّيخ عبد الله مبشّرًا بتمام الأعمال واستعداد المسجد لاستقبال عباد الله[2]:

(١) حرفة يعمل أصحابها في صنع الحصير المعتمد على مواد نباتية، كالأسل (السمار)، والديس والقنب، على اختلاف المناطق، وتستعمل تقنية النسج في صناعة الحصير النباتي، وتعتبر المرمة والخشبة والوتد والحبال الأدوات الأساسية في حبكه، ويسمى صاحب هذه الحرفة بالدّرّاز، ومَشْغَلها بالدّرّاز، وتعتبر تحصارت اليوم من الحرف التقليدية المهددة بالانقراض لكساد سوقها؛ بسبب منافسة الفرش العصرية -الموكيط والحصير البلاستيكي أساسًا- وأيضًا لقلة عدد العاملين بها وارتفاع ثمن المواد الأولية، بعد أن كانت لقرون طويلة أساس الفروش لدى شريحة واسعة من السكان خاصة بالبوادي.

(٢) لا تذكر المصادر المدة التي استغرقتها عملية البناء.

– مـن لم يشـكر النّـاس لم يشـكر الله، وشـكرك يـا عـمّاه عـلى مـا أنفقـت مـن جهـد ووقـت لا يسـدّد نيابتـك عنّـي فيـه شـكر.

– وهـل عمـل الخـير يحتـاج شـكرًا يـا بنيّـة؟ ولئـن كان هنـاك مـن يسـتحقّ الشّـكر فهـي أنـت، بإتاحتـك لهـذا الشّـيخ الكبـير المطـلّ عـلى القـبر المسـاهمة في عمـل جليـل يفـرح بلقيـا الله بـه.

– إنّـما نحـن أبـواب لله عـلى بعضنـا، فمـن يفتـح منّـا بابـه في وجـه إخوتـه يفتـح الله في وجهـه أبوابهـم.

– هو ذاك يا بنة أخي.

– أسـتأذنك أن تتوجّـه إلى الإمـام يحيـى بخـبر اكتمال المسـجد، وتسـتأذنه في تعيـين إمام للمسـجد.

– الإمـام موجـود؛ شـيخ قـرويّ مـن أهـل العلـم والصّـلاح، ندبـه النّـاس للصـلاة بهـم وقدّمـوه، فقبـل منهـم التّكليـف، وقـد كلّمـت الإمام يحيـى في شـأنه قبـل أيّـام فرحّـب، وجعـل شرط إمامتـه رضـا النّـاس بـه وقبولهـم إمامتـه بهـم، وقـد عـزم النّـاس عـلى فتـح أبـواب المسـجد في وجـه المصلّـين غـدًا إن شـاء الله عنـد صـلاة الظّهـر.

– خـير الـبرّ عاجلـه، أمّـا أنـا، فقـد أنهيـت واجبـي، ولم يعـد لي عـلى بيـت الله سـلطان، فالمسـجد بيـت الله، يسـتقبل فيـه ضيوفـه وعبـاده، لكنّـي أحـبّ أن أكـون أوّل مـن يصـلّي بالمسـجد.

– سنام الجهد والله، الآن إذن، فأنتِ أحقّ النّاس بسبق الصّلاة فيه.

- ليس الآن، في الهزيع الأخير من اللّيل، سأقيم به ما تيسّر من قيام اللّيل، ثمّ سأصلّي الفجر والصّبح به، وأقعد لذكر الله وشكره إلى شروق الشّمس.

***

لا حول ولا قوّة إلّا بالله، كلمة أتبرّأ بها من حولي وقوّتي، وأنزل بها عن إرادتي ومشيئتي، وأردّ الفضل والمنّ لله وحده، الفعل فعله، والعمل عمله، والوسيلة اختيار واصطفاء منه، وما بعد ذلك كلّه إنّما هو توفيق ونيّة وامتحان عسير، بين من يؤتي ماله طلبًا للتّزكية والتّطهّر والزّلفى والارتقاء في مقامات العبادة، وبين من يعمل ليقال عَمِل، فمن وفّقه الله أخلص النّيّة فيما استُخلف فيه، فكان عمله مقبولًا مرضيًّا، ومن خذله الله فخلط بأعماله -وإن كثرت- رياءً أو حبّ ظهور وشكر أو طلب سمعة، أو استمالة لقلوب أو إرضاءً لأخرى، كانت أعماله مردودة رديّة، منزوعة البركة مستلبة خربة، صورًا قائمة تعجب النّاظرين وتقع في قلوبهم موقع التّقدير والتّقديم والإشادة، لكن لا وجود لروح الإخلاص فيها[1].

إنّ الباعث والمقصد هو ما يعطي العمل قيمته، والنّيّة هي من تشكّله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي على نيّته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[2]، والنّيّة روح العمل ولبّه، بل هي العمل كلّه، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا

(١) يقول ابن عطاء الله السكندري: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها».
(٢) [الإسراء: ٨٤].

لِـكُلِّ امْـرِئٍ مَـا نَـوَى[1]»، والإخـلاص إكسـيرها وكيمياؤهـا الـذي لا تخلُـص ولا تتخلّـص إلّا بـه، وبحسـبه فيهـا تقبـل وتطيـب وتزكو وتسـمو، وتغشـاها البركـة ويكتـب لهـا البقـاء.

وقـد حرصـت ألّا يخالـط عمـلي مفسـد أو مبطـل، وجاهـدت نفـسي أشـدّ المجاهـدة، وأخذتهـا بالرّياضـة محاوِلـة قهـر هواهـا، وسـلب حـظّ الأغيـار منهـا، وكـسر شـوكة حـبّ الظّهـور فيهـا، وعكفـت عـلى تَخْلِيَتهـا مـن شـوائب الالتفـات، وحملهـا عـلى الطّمـع في الآجلـة، والإعـراض عـن كلّ رغبـة دنيويّـة عاجلـة.

رغـم ذلـك لم تسـلم نفـسي مـن مداخـلات الرّيـب، ولم تفلـت مـن كدر الالتبـاس، فـلا أدري أنجّـاني الله مـن مزالـق الحظـوظ وعصمنـي مـن دناءة المقصـد وتداركنـي بخالـص القبـول، أم ألقـاني في حضيـض الشُّـبه وبـوّرني في سـفالة المخالطـة، فلـم أجـنِ بعـد الـزّرع إلّا الشّـوك والتّعـب، وصـار عمـلي بعـد الكـدّ والنّصـب هبـاءً منثـورًا، بـل وربّـما نـكالًا ووبـالًا عـليّ.

اللّهـم إن علمـت الإخـلاص في عمـلي ونفيـي الغِـيَرَ عـن القصـد، فاجعـل البركـة فيـه، وعمّـره بهـا، وامددهـا منـه لتعـمّ الأرض وتنيرهـا، وإن علمـت غـير ذلـك فاغفـر غفلتـي، وتجـاوز برحمتـك ضعـف نفـسي، ولا تجـازِ جريـرة أمتـك بالحـسرة يـوم يبعثـون.

اللّهـم لا تجعلنـي ممّـن يـأتي يـوم القيامـة فيعـرّف نِعمتَـه، فيَعرفهـا، فيُسـأل عـمّا عمـل فيهـا، فيجيـب، فيكـذّب، فيُسـحب عـلى وجهـه فيُلقـى

(١) متفق عليه، من حديث عمر بن الخطاب.

في النّـار[١].

اللّهـم دلّنـي بإشـارة، أو خُصّنـي بعطفـة، أو بثّ في نفـسي يقينًا ينتشـلني مـن مهـاوي الشّـكّ والظّنّة والملامـة المضنيـة. آمين.

***

بعـد أن أرخـى اللّيـل عـلى المدينـة سـدوله، وهجـع مـا بهـا مـن حَيِـيَ، لبسـت جديـد ثيـابي وأبهاهـا، وتقلّـدت مشـكاتي، وخرجـت ميمّمـة المسـجد، محفوفـة بصحبـة ملائكيّـة تمتّعنـي وتسـعدني، تحوطنـي وتحجبنـي عـمّا يحيـط بي مـن موجـودات ومعقـولات، مسـتبشرة بهـلال عيـدي، مكـبّرة لطلـوع فجـره، قاصـدة محـراب الفتـح وقبلـة الـسّرور، غـير مسـتوعبة بعـد أنّ الله أكمـل عـليّ جـوده وأتـمّ إحسـانه لي باصطفائـي عـلى كثـير ممّـن خلـق بهدايـة التّوفيـق.

أحسسـت وأنـا في سـلوكي إلى المسـجد بتخلّـصي مـن كلّ جهـالاتي المتراكمـة، وأعـمالي السّـيّئة، وظنـوني الفاسـدة، وآرائـي الرّديئـة؛ بتحلّـلي مـن كـدر الضّمـير، وقيـد الجسـد، وعوالـق النّاسـوتيّة المعيقـة لدنـوّ روحـي، المثقِلـة لورودهـا عـلى معـاد البـدء وحـضرة الشّـهود، آنسـت خـلال هـذا العبـور القـدسيّ مـن ربٍّ أذانًـا:

(١) والإشارة هنا للحديث الذي رواه مسلم، رقم «١٩٠٥» وغيره من طريق أبي هريرة: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ...، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

«حيّ على الحقيقة حيّ على السّلام

حيّ على الكشف حيّ على الخلود»

يناديني به، يقرّبني ويناجيني؛ ليكشف لي عن أحد مكنونات علمه، أو ليجتبيني بأحد أسرار غيبه، ليكشف عنّي حجاب قصور الوجود، ويبلّغني فسحة دار البقاء، وأحسست في نفسي خفّة روح سماويّة، ورهافة الأجرام الشّفّافة، وأنا أسلك.

بوصولي المسجد شاهدت بوعيي المتبقّي انفتاح أبوابه النّورانيّة في وجهي، كاشفة لي عن عالم كان مخزونًا، وسرّ كان قبل اللّحظة في حكم المكنون، وتساءلت ببقيّة الذّهن وأنا أحاول استجماع مداركي واستجلاء ما أعاين: أليس هذا هو البيت المعمور؟ أوليست هاته الجواهر النّورانيّة التي تعمره؟ أوليست هاته المراقي التي يعرج فيها سبعون ألف ملك في كلّ يوم وليلة مرّة واحدة في كلّ وجودهم؟ وهاته النّجوم المنثالة على السّطح الممرّد باللّآلئ، أهو نثر من أجنحة جبريل أم ميكائيل أم إسرافيل؟

كان مشهدًا جليلًا، آسرًا يخلب الأرواح ويأخذ بتلابيب النّفوس، جذبني نحو عتبة المسجد للقيام بخطوتي الأولى، وما إن سدّدتها ودلفت حتّى اختفت الأبواب والأساطين والسّطح الممرّد والجواهر الرّوحانيّة والمراقي النّورانيّة ونثر الملائكة، كأنّها لم تكن مجودة إلّا لتغريني بالتّقدّم والدّخول، ولم يعد يظهر إلّا المحراب وقد أسرج بسُرُج زاهرة، تنبع من أصل العرش.

أحسست بنفحة تُنفث في قلبي، وبروح دافئة تتسلّمني من نفسي، تُعرّيني من مادّة الجسد وتُخِلُّني في نَيِّرَة مسخَّرة، ليس لسطوة المادّة عليها سلطان، تطير بي دون أجنحة، وتسبح بي إلى حيث أُمِرَت، لتحطّ بي داخل المحراب المِسْرَجَة.

في المحراب ألفيت آيات عديدة منقوشة، وكلمات مسطّرة، وأسماءً كثيرة محفورة، وسجلّات وكتبًا مرتفعة بارتفاع السّقف المنير، استعجمت وحاولت التّخمين، لكنّ خاطري لم يسعفني، وضمائري التي لم يعد لي أيّ سلطان عليها مجذوبة نحو أشياء أعلى، فأقمت الصّلاة وكبّرت، وقرأت الفاتحة واستفتحت سورة البقرة، كنت أسمع الآيات تنساب منّي، بصوتي ونبرتي، بسكتاتي ووقفاتي وقفلاتي، دون أن أنطق بها أو أحرّك بها لسانًا أنا لا أعلم أين هو، وركعت وسمعت خلفي من حمِده، ثمّ استسلمت لسجود طويل، فتح الله عليّ فيه من المحامد وحسن الثّناء عليه ما لم يفتح لي قبل اللّيلة، وكشف لي من نوره ما به يُعلم ويُعبد، وأودع في روحي سرّ العهد الأوصل، وخصّني بمقام الإحسان المفرد، واصطفاني بحال العناية الكبرى، وجلّى لي من الآيات وعيّن لي من الحقائق، وأطلعني على ما يُكتم ولا يُتكلّم به لمخلوق، ما صقل به فؤادي، وأجلى به عنه كلّ العلائق، وأفعمه بالطّمأنينة واليقين.

بعد أن أنهيت ركعتيّ وسلّمت، ألفيت كلّ شيء وقد عاد إلى هيئته الماديّة، الجدران والأساطين والصّحن والأبواب والطّاقات والمحراب والسّقف، كلّ شيء كان غارقًا في حلكة بهيمة لا يشقّها إلّا نور مشكاتي

الواهـن، غـير عالمـة كـم مـن الوقـت بقيـت مشـدوهة اللّـب فيـما رأيـت وعشـت، غـير متأكّـدة أكانـت تلـك الحـضرة القدسـيّة كشـفًا حـلّ عـن حـواسي قيـود العجـز أم خيـالًا متولّـدًا مـن شـوقي إلى تلـك المواجيـد النّورانيّـة؟ غـير أنّي وجـدت في صـدري قلبًـا مطمئنًّـا مستأنسًـا، صافيًـا مسـتريحًا مـن محاذيـر الشّـك وكآبـات الاضطـراب، فرفعـت يـديّ إلى مـن لا علـم يُعلـم ولا شيء يُفهـم إلّا بإذنـه، نـور السّـماوات والأرض، الـدّال عـلى معرفتـه وعظمتـه بآثـار صنعتـه وواردات ربوبيّتـه، حامـدة شـاكرة نعمتـه وعطفتـه الشّـاملة.

وبينـما أنـا أقـوِّت قلبـي بمختـار الذّكـر، وأريحـه بمنتخبـه مـن ثقـل مـا عـاش وشـاهد، إذ أُخِـذت مـن وعيـي إلى عـالم الـرُّؤى؛ قبسـة النّبـوّة، ومفتـاح الغيـب، والنّافـذة التـي يفتحهـا الله لمـن شـاء مـن عبـاده تسـلية وبـشرى، ورأيـت والـدي بالهيئـة النّورانيـة التـي رأيتـه عليهـا سـابقًا، بسندسـه، وإسـتبرقه، ومشـكاته الصّافيـة، والكتـاب أو الصّحيفـة، لكنّـه لم يكتـفِ بالنّظـر نحـوي والابتسـامة لي كـما فعـل في الرّؤيتـين السّـابقتين، بـل ارتقـى الصّومعـة ورفـع الأذان هـذه المـرّة بصـوت كأنّـه مـن مزامـير داود، ثـمّ رفـع بيـده المشـكاة، وقـد اسـتحالت مفتاحًـا ذهبيًّـا مشـعًّا، وتوجّـه إليّ قائـلًا: «بُـشراكِ يـا فاطمـة بـشراك، أوجبـتِ يـا بُنَيَّـة».

أفقـت مـن الغفـوة عـلى صـوت المـؤذّن ينـادي لصـلاة الفجـر، كانـت الابتسـامة لا تـزال مرتسـمة عـلى شـفتيَّ، وشـعاع المفتـاح النّـوراني مـا زال يومـض في عينـيّ، فـردّدت مـع المـؤذن تكبيراتـه، وحمـدت الله، وصلّيـت عـلى نبيّـه الكريـم، ثـمّ قمـت وصلّيـت رغيبـة الفجـر، وأتبعتهـا بفريضـة

الصّبح، ثمّ قعدت على عادتي لتلاوة صلواتي واللّازم من أورادي، إلى أن انفلق الصّبح، وشقّ ضوؤه دهمة اللّيل، وتسرّب نوره إلى داخل المسجد، وعمّ أرجاءه وحناياه، حينها قمت من مكاني، وسرت بين كلّ بلاطاته، ولامست سواريه وجنباته، وتأمّلت إتقان مبناه وجمال صنعته ودعوت:

«اللّهم اجعله دار عبادة وعلم ومعرفة وقرآن، اللّهم املأه بركة ومنفعة وطمأنينة وسكينة للأرواح، اللّهم كثِّر رُوَّاده وعُمَّاره وقاصديه، واجعل مهاوي القلوب إليه، اللّهم اجعله للدّين سيفًا وتُرسًا، وللملّة حصنًا وعزّة، اللّهم إنّه بيتك، أغنه وأغنِ به، سخّره وسخّر له، أعلِه وأعلِ به، اللّهم تقبّله صدقة جارية من أمتك فاطمة ومن عبدك محمد أبيها، واجعله لهما ذُخرًا يوم يلقيانك يا عظيم». آمين.

***

غادرت المسجد على غير الحال التي دخلته بها، أحسستني خفيفة، شفّافة وغير مُشاهدة، كانت الشّمس طالعة تنشر شعاعها الذّهبيّ معلنة للعالمين عن يوم ربيعيّ جميل، تزيّنه الجنان المخضرّة وتزيده مزارع القمح والشّعير الممتدّة على امتداد الأفق المفتوح أمامي نضارة وأنقًا، يرسل نسمات معطّرة بروائح الياسمين والقرنفل، ويشحن الصّدور بأمل جديد، والنّاس بين مبكّر لعمله وساعٍ وراء رزقه وقاصد كُتّاب شيخه، لا تسمع منهم صوتًا ولا ركزًا إلّا وقع خطوات مثابرة، وسلامًا يلقى من هنا، وردًّا يأتيه من هنالك.

أحسست بحواسي مستنفرة حديدة، كأنّي استعدتها بعد إصلاح أو استبدلتها بأخرى أجدّ منها، تستدعي صورًا طوتها الذّاكرة في ركن ناءٍ، ويلحّ عليها صوت آت من سنوات خلت ليتردّد في أذني صادحًا:

«حان الوقت لتشارك أسرتنا في بناء الصّرح العظيم والكيان القويم، لبناء حضارة ستشعّ على الأرض وتحتضن الإنسان وتعلي ذكر لا إله إلّا الله».

دعاني هذا الصّوت الأثير للتّوقّف، التفتّ حتّى واجهت باب المسجد، تأمّلته شامخًا كطود مكلّل، وقلت في خاطري: «بهكذا زرع، تنبت الحضارة».

***

شخصيّة فذّة

باستثناء معلومات شحيحة ذكرها ابن أبي زرع[١]، ومن نقل عنه كابن خلدون، وابن القاضي[٢]، وما كرره الجزنائي، نقلاً عن مؤرخ سابق له[٣]، لم تحتفظ لنا الكتب التاريخية بأية ترجمة مفصلة للسيدة فاطمة الفهرية، إلا أن ما لم تذكره التواريخ لتأخرها أو لضياعها يمكن استنباطه من عمل المرأة ومأثرتها الخالدة، والحقيقة أن معرفتنا بأنها مؤسسة جامع القرويين كان أمرًا كافيًا للاستدلال عليها، فالأعمال العظيمة لا يقوم بها إلا إنسان عظيم، رجلًا كان أو امرأة، كما أن شأو العمل أكبر الدلائل على شأو صاحبه، ولا نعرف عملًا أعظم من القيام بعمل تطوعي يخدم أمتك، ودينك، ووطنك، ومدينتك ...، ومن هذا العمل يمكننا رسم صورة لصاحبته.

كانت السيدة فاطمة -كما ينص ابن أبي زرع- امرأة مباركة صالحة، والبركة والصلاح ثمرتا المعرفة والعلم، ولا نشك أن المرأة حصَّلت في سني نشأتها الأولى الأساسي من العلوم الشرعية، وحفظت القرآن ونصيبًا من الحديث، كما أنها تفقهت على يد والدها، وهو من

(١) معتمد ترجمة هذه المرأة العظيمة ما جاء في روض القرطاس، ص ٥٤-٥٥.
(٢) راجع: ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٠، وجذوة الاقتباس، ص ٥٢.
(٣) راجع: جني زهرة الآس، ص ٤٥.

الفقهاء، كما صنفه ابن القاضي، أما عن المعرفة[١]، فقد ترجمها سلوكها المتمثل في التجرد والزهد والورع والنية الصافية، وعملها المتمثل في أصناف العبادة والنافلة، والمتوج بالدخول في أضخم مشروع قد يشارك فيه إنسان، مشروع الله الأعظم، المتمثل في إعمار الأرض، وعبر أشرف ما تعمر به بيت الله، بكل المعاني والمفاهيم التي يحملها ويمثلها بيت الله الجامع في تراث المسلمين وتاريخهم، ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى جازى السيدة فاطمة عن نيتها الخالصة، وتقبل عملها بأحسن ما يكون القبول، ودليل ذلك هو تحول جامع القرويين من مسجد للصلوات الخمس إلى أعظم منارة دينية وعلمية وحضارية وثقافية بالغرب الإسلامي.

مسألة أخرى ميزت هذه الشخصية الفريدة، ولا بد أن القارئ للسطور القليلة التي ترجمت لها قد وقف عندها بالنظر[٢]، ألا وهي انخراطها الكامل في مجتمعها، حضورها فيه، وعيها بانتظاراته، وتفاعلها مع الأخبار والأصداء التي تصلها منه، والأهم هو مشاركتها وتأثيرها الكبير فيه.

لم تكن السيدة فاطمة تطلب الأخبار وتتبعها وتستقصيها نميمة أو تتبعا للعثرات، أو حتى إشباعًا لفضول غريزي ينسب لغالبية النساء، بل إن الدافع كان وراء ذلك كما رأينا هو تكوين تصور واضح

(١) والكلمة بصيغتها المُعَرِّفَة «المَعْرِفَة» ينصرف معناها للدلالة على المعرفة بالله تعالى، فارتباطها بأجل معروف «الله» جعل منها أم المعارف، أو قل: جعل منها المعرفة الحق المتغيّر ما سواها.

(٢) يستعمل المؤرخون أفعالاً قوية أثناء حديثهم عن المرأة، فابن أبي زرع يتحدث عن إرادة وعزم، والجزنائي عن رغبة وتطوع ومبادرة، أما ابن خلدون، فيعد عملها بأنه كان تنبيهًا لعزائم الملوك، ودافعًا لهم للاقتداء بها.

تستطيع على ضوئه التدخل والمشاركة في بناء هذا المجتمع، والمساهمة في تقدمه وتأسيس حضارته.

على عكس ما يتم التصوير أو الترويج له من بعض المتكسين والمتكسات، ممن يقدمون أنفسهم كمخلّصين للمرأة ومدافعين عن حقوقها التي هضمها المجتمع الإسلامي، تدلنا السيدة فاطمة وأختها مريم أن المرأة في المجتمع المغربي -المسلم- في هذا الوقت المبكر جدًّا من تاريخنا لم تكن مسجونة في قفص «الحريم»، ولم تكن همـلًا لا يُحسَب لها حساب، ولم تكن ممنوعة ولا مغيّبة، ولا هي كانت موقوفة على العمل المنزلي والجماع والإنجاب، ومثل هاته الأدوار الحيوانية القاصرة، بل كانت على العكس من ذلك -إلى جانب كونها زوجة صالحة وأُمًّا بارّة صنعت أجيالًا من العلماء والمفكرين والقادة العظام- كاملة الإرادة، تامة الذمة، مالكة لحرية التصرف، متمتعة بحقوقها الشرعية ومكانتها الاجتماعية، صاحبة عزم ومبادرة، فاعلة، مؤسِّسة، رائدة، حاضرة بقوة إلى جانب الرجل، شقيقتَه في الصف الأمامي، ومشاركة إياه، وداعمة له، ومكملة له، وخليفة له من موقعها، حسب السياقات التاريخية والاجتماعية، هذا في الوقت الذي كانت فيه مجتمعات غربية كثيرة أخرى تعتبر المرأة مخلوقًا محجورًا عليه، مغيّبًا، لا حقوق له ولا ذمة، وأدنى درجة من الرجل، أو تابعًا له في أحسن الأحوال.

وها نحن اليوم نرى بعض المجتثين من أصولهم، يستدعون خطاب الفكر الغربي المتأثر بتراث أهان المرأة وشيّأها، وعاملها كالمملوك،

بل كالحيوان، وإن بدا اليوم منافحًا عنها، ويستوردون شعاراته جميلة الرنة من قبيل المساواة والنّدّيّة والاستقلالية والحرية المطلقة، وكلها أدوية استعملها الغرب لعلاج أمراضه التي عانى منها لقرون -وها هو يعاني أعراضها القاتلة اليوم- لتحرير المرأة الغربية، التي كانت بالفعل شبه مستعبدة، وإنسانًا من درجة ثانية، كما نص على ذلك أشهر فلاسفة الغرب قبل عامته، والتي لا نجد في تاريخنا ولا في ديننا أن نساءنا عانين من مثله حتى نحتاج لمثل هذا الاستيراد الأعمى.

فلا يبقى والحال هذا إلا القول بأن ما فيه هؤلاء ما هو إلا سَوق أو استرزاق، أو هو في أفضل الأحوال وهْم توهموه قصورًا وضعف تبصّر، وقلة معرفة ودراية بتاريخهم ومجتمعهم ودين آبائهم من جهة، وبتاريخ الغرب ومجتمع الغرب وعقيدة الغرب وسياق الغرب المختلف تمامًا عن السياق الذي يجاهدون في سبيل بث هاته السلع المستوردة فيه بطرق فجة، وركزوا في عملهم على نماذج شاذة، وسوَّقوها كما لو كانت حالة عامة عاشتها المرأة المغربية والمسلمة طيلة تاريخها، وأسسوا الجمعيات والمنظمات، وأقاموا الاجتماعات والتظاهرات بدعوى الدفاع عن المرأة والمطالبة بحقوقها، لكن عن أية امرأة يدافعون؟ طبعًا ليست المرأة التي تشتغل عاملة في المعامل والحقول بنظام يشبه نظام السخرة، ولا تلك التي تتجرع المذلة وهي تنظف أوساخ الآخرين، ولا تلك التي تخدم في البيوت والمطاعم والفنادق، ولا تلك التي تفرش بعض البضائع المزجاة على أحد الأرصفة، ولا تلك التي تعول أسرة في هوامش البلاد وجباله النائية،

بل يعنون بنضالهم المستميت امرأة أخرى، تحتل وظيفة «عمومية غالبًا»، براتب كبير بإحدى المدن الكبيرة، ترطن بتلك اللغة الأجنبية، تحفظ بعض الشعارات الرّنانة، وتظهر في بعض البرامج تنادي بحقها في التحرر، التحرر الذي هو ليس إلا حقها في مناقضة كل الضوابط والقيم والأعراف والحدود والمعايير التي تعاقد عليها المجتمع -الذي تعيش فيه- لقرون طويلة علانية ودون أدنى رقابة أو إنكار.

وقد انطلى ذلك على بعضنا للأسف، وتبناه بعض سياسيينا «الليبراليين المعصرَنِين»، وصار الانسياق له حداثة وثقافة، وأغرتهم الرنة، وظنوا حقًّا أن هاته المفاهيم الملغمة التي انطلقوا يرددونها بلا وعي هي ما سيدخلهم الحداثة، وأنها هي فقط ما ستُحِلّ العدالة المفقودة على البلاد، وتعيد إلى المرأة حقها المغصوب، وتحسم معركتها المتخيلة ضد الدين والمجتمع والرجل خاصة، ذاك الرجل الذي بدوره يوجد منه رجلان؛ رجل المركز الذي هو الموديل المذكر للمرأة المناضَلِ في سبيل حقوقها، ورجل الهامش، ذاك المُثقَل كاهله بأعباء تحصيل القوت وصون بعض من الكرامة المستباحة، والذي لم يجد بعد شعارًا جميل الرنة يرفعه وينادي به طمعًا في تحصيل حق.

ستظل هذه الصورة الرائعة التي مثلتها السيدة فاطمة مصدر فخر للمغاربة خاصة، وللمسلمين بصفة عامة في مشارق عالمنا المسلم ومغاربه، وللمغربيات والمسلمات بصفة أخص، كما أن هاته الشخصية العظيمة أكمل ما يمكن أن تقتدي به المرأة المغربية والمسلمة، وأجل ما قد نربي عليه بناتنا، وأكمل نبراس نقدمه لهن،

والأهـم في اعتقـادي أن فاطمـة هـي أعظـم شـخصية نسـوِّقها كونيًّـا عـن المـرأة المغربيـة والمسـلمة، في زمـن انقلبـت فيـه المعايـير، واختلـت فيـه القيـم، ونـسي كثـيرون جذورهـم أو جهلوهـا.

***

العبرة

قد تملك كنوز الأرض، لكن اعلم أن قيمتك ليست بما تملكه، بل بما تستطيع إعطاءه، قيمتك ليست في لقبك العائلي، ولا في الأسرة التي تنتمي إليها، ولا في الطبقة التي تصنف نفسك فيها، بل بمدى انتمائك لمجتمعك، لثقافتك، لدينك، لوطنك، لمدينتك، لأبناء شعبك، ووعيك بواجباتك نحو كل ما ذُكر.

العبرة ليست في كونك رجلًا أو امرأة؛ لأن التنافس في ذاته ليس جنسيًّا، ولا هو سباق نحو الصدارة، ولا هو محاولة إثبات أحدهما للآخر أنه أقدر أو أجدر أو أقوم منه، وإنما العبرة في قوة مساهمتك وتأثير أعمالك مهما كانت صغيرة أو مجهولة الفاعل، ولعل أعظم عبرة قد نتعلمها من سيرة السيدة فاطمة الفهرية هي ألا ننتظر دعوة للقيام بواجبنا، وألا ننتظر من الناس شكرنا عليه بعد فعله، لأنه ببساطة واجب، ولو أن كل واحد منا انتظر دعوة للقيام بواجبه وشكورًا عليه، لما ضحى الشهداء بأرواحهم في سبيل دينهم وأمتهم ووطنهم، ولا شُق طريق في جبل ناء، ولا حفرت بئر في أرض جدباء، ولا غرست نخلة في واحة جدباء، ولا حُمي عرض مات صاحبه، ولا كُفل يتيم، ولا أُطعم جائع، ولا أُعطيت صدقة، ولا حُفظ عِلم، ولا أُلّف كتاب.

***

تحرّي الحلال في بناء المسجد

تعتبر السيدة فاطمة أول امرأة تبني مسجدًا في تاريخ المغرب، بل في تاريخ الإسلام، حسب ما وقفنا عليه، وربما أوّل «فاعل خير» يبادر لعمل كهذا، فالعادة كانت بأن من يقوم ببناء المساجد هو الخليفة أو من يليه من ممثلي السلطة «أمراء، ولاة، عمال ...»، والشرط كان وما زال طيب الأموال، ولا نشك أن حاجة الناس لبناء جوامع أخرى بفاس غير جامعي الأشراف والأشياخ طرحت بقوة قبل مبادرة الأختين، وأن من الأعيان من فكر في بناء مسجد يوسع به على المسلمين، إلا أن أحدًا لم يتجرأ مع وجود المال والرغبة على تصدر عمل بهذه القدسية، والسبب فيما يبدو هو عدم اطمئنانهم لسلامة أموالهم، فالمال المحصل من المعاملات التجارية -وهي صلب الاقتصاد ومصدر الاغتناء- وإن كان حلالًا، فهو مال لا يخلو من شبهة، وكذلك الأمر بالنسبة للإمام يحيى، فلا بد أنه فكر في بناء مساجد أخرى لاستيعاب الأعداد الغفيرة من الوافدين، إلا أنه لم يجد مالًا يخضع للشروط اللازمة، رغم توفره على مال أنفقه على بناء الفنادق والحمامات كما تؤكد المصادر، أما المال الطيب المتفق على خلوه من الشبهة، فمحصور في نوعين:

النوع الأول: أخماس الغنائم التي طهرتها دماء الشهداء، وهذه إن تتوفر لولي الأمر فلن تتوفر لغيره.

والنوع الثاني: المال الموروث، وقلما يرث الإنسان مالًا وفيرًا يكفي لبناء جامع، بل قلما يتوفر مال وفير كهذا لشخص بمواصفات الأختين وزهدهما.

وهكذا، فعند توفر مال لا شبهة فيه في أيدي أشخاص مناسبين تم البناء، وبارك الله فيه.

والملاحظ أن المغاربة منذ القدم تشددوا في أمر سلامة الأموال التي تخصص لبناء مساجدهم، بشكل لا نجد له نظيرًا في المشرق[1]، ومن هنا جاء إصرار نصِّي ابن أبي زرع والجزنائي في أكثر من مناسبة على أن كل ما أنفق على بناء القرويين كان حلالًا طيبًا، من ثمن شراء الأرض، إلى المواد المستعملة في بناء الجامع من حجر وتراب ورمل، وصولًا إلى الماء الذي حفرت بئرًا خصيصًا لحاجات البناء؛ حتى لا تضطر للاستعانة بماء قد تعلق به شبهة، وقد جوزيت المرأة العظيمة من الله على حرصها وتحريها الحلال في بناء الجامع، بأن جعله أحد أعظم المنشآت العلمية في التاريخ الإنساني.

***

(١) تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٦٥.

محمد بن عبد اللّه الفهريّ

إن نصيبًا كبيرًا من فضل جامع القرويين يعود لهذا الرجل، رب الأسرة الفهرية التي أعطت فاس اثنين من أعظم معالمها، فهذا الرجل هو من هاجر بأسرته من القيروان إلى فاس، وبماله الذي ورثته بنتاه بُني الجامعان، والأهم هو التربية التي زرعها في ابنتيه حتى أثمرت عملًا عظيمًا، خلده التاريخ المغربي والإسلامي والإنساني.

ومن المؤسف أننا لا نجد ترجمة للرجل في أعلام القيروان، على الرغم من أن ابن القاضي[1] يعده من الفقهاء في ترجمته الموجزة له، والظاهر أن محمد بن عبد الله تعاطى لسوق الفقه حدثًا، وقد كانت القيروان في زمانه مركزًا للفقه المالكي ببلاد المغرب؛ لاستقرار سحنون[2] صاحب المدونة بها، حتى نال منه ومن غيره نوالاً حسنًا، جعله من المعدودين في جملة الفقهاء، قبل أن يتعاطى فيما يظهر للتجارة ويجتهد فيها، ويكسب بالحلال كسبًا طيبًا، تركه لابنتيه.

***

(١) جذوة الاقتباس، ص ٢١٣.

(٢) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون، ولد بالقيروان، ومات بها (١٦٠-٢٤٠)، إمام الفقه المالكي في زمانه بجميع بلاد المغرب، يرجع الفضل للجهود التي قام بها في إرساء قواعد المذهب المالكي بالبلاد، وعلى رأسها تدوينه للمدونة الكبرى، التي ستصير قاعدة للتطبيق التشريعي ببلاد المغرب، وخاصة ما يرتبط بالمسائل القضائية، كونه اشتغل قاضيًا بالقيروان.

مريم الفهريّة

إن ما قيل عن صلاح وعلم وبركة السيدة فاطمة، ينطبق على أختها السيدة مريم، فقد تلقت المرأتان التربية نفسها، وتمتعتا بالأخلاق نفسها، وحملتا القيم نفسها، فإن كانت الأولى بادرت لبناء جامع القرويين بعد علمها بحاجة أهل عدوة القرويين له، فإن أختها بادرت للأسباب نفسها لتأسيس صنوه؛ جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين في الوقت نفسه الذي أسست فيه أختها جامع القرويين، وقد عرف جامع الأندلس بدوره نموًّا وازدهارًا كبيرًا، فقد أصبح الجامع الرئيسي لعدوة الأندلس، في الوقت الذي تحول صنوه لجامع عدوة القرويين الرئيسي، كما عرف حركة علمية وثقافية وسياسية مهمة جدًّا، خاصة حينما كانت المدينة مدينتين، تفصلهما أسوار ولكل منهما قيادة سياسية، إلى أن آلت فاس للحكومة المرابطية، التي هدمت الأسوار الفاصلة بين العدوتين لتصيرا مدينة واحدة، وهنا مالت الكفة لجامع القرويين على حساب جامع الأندلس، واتجهت عناية الأمراء المرابطين نحوه.

وسيكون على جامع الأندلس أن ينتظر إلى زمن الناصر الموحدي، الذي سيلتفت للجامع ويوسعه، ويزيد فيه زيادات كثيرة ما زالت قائمة إلى اليوم، ومع هذا الإصلاح والتوسعة الموحدية سيعود

الجامع للعب دوره الثقافي والعلمي، وخاصة ما تعلق بالفقه المالكي، وسيستمر ازدهار جامع الأندلس زمن المرينيين أيضًا، الذين شيدوا حوله المدارس؛ كمدرسة الصهريج لتأوي الطلبة الدارسين به، وكذلك بقي الحال في عهد الزيدانيين والفيلاليين، الذين جددوا الجامع، وأدخلوا عليه بعض الإصلاحات، خاصة على عهد السلطان مولاي إسماعيل، إلا أن جامع القرويين بقي المتصدر في العلوم والثقافة، وذا التأثير والوزن الاجتماعي والسياسي الراجح.

صورة لجامع الأندلس من جهة الباب الكبير المدرّج، الذي بناه الناصر الموحدي عام ٦٠٤هـ

***

الفهريّون ببلاد المغرب

ارتبط الفهريون بتاريخ بلاد المغرب في عهوده الإسلامية الأولى ارتباطًا وثيقًا، جاء ذلك من انخراطهم في الحملات العسكرية الأولى التي شنها الأمويون على بلاد المغرب، ومن الدور السياسي المهم الذي لعبوه في المنطقة بعد استقرار الإسلام بالبلاد، حتى إنهم طمعوا في تكوين حكم مستقل عن المشرق، كما سنرى.

يعتبر عقبة بن نافع -بالإضافة إلى أنه مؤسس القيروان- صاحب أول نشاط بارز للفهريين بالساحة المغربية، فقد قاد الرجل الحملة الأولى التي وصلت إلى المغرب، ولا بد أن جيشه تكون من عدد مهم من الفهريين، وقد رأينا كيف أن حملته أو مغامرته الجامحة هي من أودت بحياته، لكنها أيضًا مكنته من تحصيل شهرة مدوية وضمان ذكره كأسطورة عربية ستسوّقها الخلافة كنموذج للتضحية والشهادة والبطولة العربية ببلاد المغرب، ويمكن اعتبار عهد عقبة بن نافع بداية استقرار الفهريين بإفريقية والقيروان على الخصوص، كما يمكن اعتبار سمعته أمتن قاعدة سيبنون عليها وجودهم بها.

بموت عقبة عام ٦٣هـ خف النشاط الفهري بالبلاد، أو صار خافتًا وغير واضح المعالم، وباستثناء عياض وأبي عبيدة ولديْ عقبة اللذيْن كانا من قادة الجيش الأموي الذي قاده موسى بن نصير

طيلة فترة ولايته، وحبيب بن أبي عبيدة مدبر قتل والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، بعد أن عيّنه موسى وزيرًا لابنه قبل رجوعه إلى المشرق، فإننا لا نجد أي ذكر معتبر للفهريين خلال هذه الفترة ببلاد المغرب على المستوى العسكري، ويبدو أن الفهريين استغلوا هذا التحييد أو التهميش المقصود من الخلافة لهم عن لعب الأدوار القيادية والإدارية؛ لترسيخ وجودهم بالقيروان على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والمعنوي.

بتولي عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ولاية إفريقية عام ١١٠هـ سيظهر الفهريون ثانية بعد طول غياب، وقد تم ذلك بتعيين عثمان بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة تستهدف صقلية، وبعدها بثلاث سنوات، سيقود فهري آخر هو عبد الملك بن قطن حملتين في أقل من عام، ستستهدفان الجزيرة نفسها، وكانت هذه الأدوار المحدودة للفهريين تمهيدًا لعودتهم بقوة لتصدر المشهد السياسي بالبلاد، والذي يجب قياسه دائمًا بالوضع في عاصمة الخلافة، وبالعلاقات التي تربط بينها وبين ولاتها بالقيروان، وتبعًا لذلك علاقة هؤلاء الولاة بأهل البلاد، سواء العرب (البلديين) أو الأمازيغ (السكان الأصليين)، ضمن السياق العام للتغيرات التي تشهدها المنطقة.

عام ١١٦هـ، سيولى عبيد الله بن الحبحاب ولاية إفريقية، ولم يكن أمام ابن الحبحاب -في سبيل تنفيذ تعليمات الخلافة المتمثلة في تقوية الحكم العربي وتوسيع الغزوات البحرية لصقلية والبرية للقبائل

المسالمة، وتأمين موارد قارة وكبيرة للخلافة- إلا الاستعانة بعرب إفريقية البلديين، لمعرفتهم بالبلاد ووزنهم العصبي بها، وقد كانت الزعامة فيهم متمكنة للفهريين في شخص عثمان بن أبي عبيدة الفهري وأخيه حبيب، فعين ابن الحبحاب حبيبًا على رأس الجيش، وأرسله في السنة نفسها على رأس حملة ستصل إلى السوس الأقصى وبلاد صنهاجة الصحراء، وتعود محملة منها بغنائم عظيمة وسبي كثير، فيم عيّن أخاه عثمانَ على رأس الأسطول، ووجهه على رأس حملة بحرية في العام نفسه إلى صقلية، لكن حملة عثمان ستفشل ويقع بعض أفرادها من الفهريين في الأسر، وبفشلها سينفرد حبيب العائد من غزوته البريّة بغنائم لم يُسمع بمثلها بالزعامة، ويعيَن قائدًا للأسطول إلى جانب قيادته للجيش، وفي السنة الموالية سيقود حملة بحرية اتجهت إلى سردينية وعادت منها محملة بالسبي، وأخرى بعدها بسنة إلى صقلية، وستستمر الحملات البحرية بصورة دورية منتظمة إلى عام ١٢٢هـ، حيث سيقود حبيب وابنه عبد الرحمن حملة هي الأكبر على الإطلاق نحو صقلية، كادت تحقق فتح الجزيرة الكبيرة لولا اندلاع ثورة ميسرة المضغري، واضطرار ابن الحبحاب استصراخ حبيب للعودة فورًا إلى القيروان، في سبيل قمع الثورة المغربية، ويمكننا الاعتماد على مجريات الأحداث منذ تولي ابن الحبحاب إلى حدود قيام الثورة المغربية؛ لمعرفة الدور الكبير الذي أصبح يلعبه الفهريون عسكريًّا وسياسيًّا بالبلاد، فضلًا عن المكتسبات والثروات المادية التي راكموها من وراء الغزوات المتعددة التي قادوها خاصة البحرية منها.

بغض النظر عن الأسباب التي أدت للثورة، لم يكن أمام حبيب إلا الاستعداد للعودة فورًا إلى القيروان، بأمر من ابن الحبحاب، والتجهيز لصد ثوّار طنجة، ليس دفاعًا عن ممتلكات الخلافة وحفاظًا على سلطانها المهدد فقط، بل حماية للمكاسب المتعددة التي عمل الفهريون بجد طوال سنوات على تحصيلها، لكن قبل أن يصل حبيب سارع ابن الحبحاب -والذي كان وزنه في الحقيقة أقل بكثير من وزن حبيب، بدليل أن ميسرة استغل غياب الأخير عن البلاد لإشعال الثورة- بإعداد جيش يضم عددًا كبيرًا من الفهريين، أبرزهم قائد الجيش خالد بن أبي حبيب الفهري، وأرسله لمواجهة الثوار الزاحفين شرقًا من المغرب إلى القيروان ريثما يعود حبيب من صقلية، وسينتهي أمر هذا الجيش نهاية كارثية، حيث سيبيده الثوار المغاربة عن آخره، فيما سمي بموقعة الأشراف، أما حبيب الذي وصل متأخرًا إلى القيروان من صقلية، فقد تجهز بسرعة، وسار فورًا حتى بلغ واد الشلف، وعسكر فيه مراقبًا تطور الأمور، ويبدو أن حبيبًا أدرك بحسه السياسي بعد رجوعه إلى القيروان ضعف موقف ابن الحبحاب بعد الهزيمة الشنيعة التي تكبدها الجيش الذي أرسله، وأيقن أنه لم يعد يصلح لقيادة هاته المرحلة الحساسة، فلم يشأ التسرع بالزج بجيشه -وكله من عرب إفريقية البلديين- في معركة في سبيل إنقاذ ورقة محروقة.

وصلت أنباء الهزيمة لدمشق، فصدم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك من هول الخبر، وأدرك ضرورة إرسال رجل حرب مكان

ابـن الحبحـاب، يسـتطيع السـيطرة عـلى الموقـف المتفجـر في المغـرب، وقمع الثـورة قبـل أن تسـتفحل أكثـر، فجهـز جيشًـا كبـيرًا ذا أغلبيـة شـامية، وجعـل عـلى رأسـه القيـسي المتعصـب كلثـوم بـن عيـاض القشـيري، وأمـره بالسـير إلى المغـرب، ومـا إن وصـل الجيـش الشـامي إلى القـيروان حتـى نشـب صراع عصبـي كاد يتطـور إلى مواجهـة مسـلحة بـين الشـاميين وعـرب إفريقيـة، لـولا تدخـل العقـلاء، لكـن عـلى الرغـم مـن كلّ شيء انضـم الجيـش الشـامي لجيـش حبيـب والتقـوا مـع المغاربـة في معركـة طاحنـة، كان انكسـار قـادة الجيـش العـربي بشـقيه وموتهـم فيهـا نتيجـة حتميـة لتصدعـه وانقسـامه عـلى نفسـه[١].

فتـح انكسـار العـرب في معركـة بقـدورة المجـال أمـام ثـورات أخـرى شرقـي القـيروان، في كل مـن صـبرة وقابـس، ولئـن كان والي طرابلـس هـو مـن تكفـل بتخليـص صـبرة مـن أيـدي الثـوار، فـإن التصـدي لثـوار قابس سـيقع عـلى عاتـق فهـري آخـر هـو مسـلمة بـن سـوادة الفهـري، الـذي انهـزم أمـام الثـوار، واضطـر للتحصـن بالقـيروان منتظـرًا الـوالي الجديـد الـذي سيرسـله الخليفـة، ومـا إن وصـل الـوالي الجديـد وهـو حنظلـة بـن صفـوان عـام ١٢٤هـ، حتـى أراد اتخـاذ خطـة دفاعيـة بالتخنـدق في القـيروان، إلا أن النصائـح التـي قدمهـا الفهريـون في شـخص عمـرو بـن عثـمان الفهـري ثنـت الـوالي الجديـد عـن فعلـه، وجعلتـه يغـير خطتـه ويسـتعد لاقتنـاص فرصـة لمهاجمـة الثـوار الذيـن بـدا عليهـم الانقسـام، وقـد اسـتطاع حنظلـة بـن صفـوان الانتصـار عـلى ثـوار إفريقيـة، بعـد معـارك مشـهودة كان للفهريـين فيهـا دور بطـولي.

(١) انظر: معركة بقدورة الملحقة بترجمة ميسرة المضغري.

ما إن حل عام ١٢٦هـ حتى عاد عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية من الأندلس، بعد فشله في التغلب عليها، وكان قد فر إليها عقب نجاته من موقعة بقدورة، وأمام عينيه هدف واحد هو السيطرة على إفريقية، واسترجاع ما ناضلت من أجله أسرته لسنوات طويلة، وقد ساعدته الأوضاع المتفسخة للخلافة بدمشق بعد موت هشام بن عبد الملك وسمعة أسرته في تحقيق مساعيه، فبعد الاستقرار بتونس مدة، دعا الناس إلى نفسه فأجابوه، ثم خرج قاصدًا القيروان، فلما سمع حنظلة بأمره حاول ثنيه عن نيته، إلا أن عبد الرحمن كان مصممًا على السيطرة على القيروان بأي وسيلة، فكره حنظلة عندئذ قتاله، وكان زاهدًا ورعًا، وآثر مغادرة القيروان تاركًا للفهري دخولها دون عراقيل.

ما إن استولى عبد الرحمن على السلطة بالقيروان، حتى وزع المناصب الإدارية والعسكرية على قرابته من الفهريين؛ لتوطيد ملكه بها، وقد ظن عبد الرحمن مدفوعًا بنشوة النصر أن سمعة أسرته وأعمالهم الجليلة شرعية كافية له في الحكم، فرأى ألا يبعث ببيعته للخليفة الأموي، الأمر الذي شجع قيام ثورات عليه في تونس وباجة وطرابلس وغيرها، ويبدو أن كثرة الثورات دفعته لمراجعة حساباته، فبعد أن استطاع معززًا بقومه الفهريين القضاء على أغلبها وتوطيد سلطته في إفريقية والأخذ بتلابيبها، وفرض نفسه كقائد عسكري قوي وقادر، بعث ببيعة شكلية لمروان بن محمد قرابة عام ١٢٩هـ، ولم يكن أمام الخليفة الأموي إلا قبولها والاعتراف بالأمر الواقع.

في عام ١٣٥هـ، سيتطلع عبد الرحمن لتوسيع نفوذه غربًا، فجهز حملة، خرج على رأسها إلى أن انتهى إلى نواحي تلمسان، ثم توجه في السنة نفسها على رأس حملة إلى صقلية، وكان قد غزاها مع أبيه عام ١٢٢هـ، ثم أرسل حملة أخرى إلى سردينية، وقد عادت جميع الحملات بعوائد مادية مهمة، أغنت العائلة الفهرية وزادت من عزها وسيادتها ووجاهتها، وبالمجمل، فقد عرف الفهريون مع عبد الرحمن أوج عزهم السياسي والعسكري والاقتصادي، وظهر أن الرجل قد أفلح في التأسيس لحكم وراثي قوي ومتين سيمتد ويزدهر، فلم تكن بيعته للأمويين ومن بعدهم للعباسيين إلا بيعة صورية لا تنال من سيادته، إضافة إلى تحكمه الكامل في مقدرات البلاد، وسكه النقود باسمه، وتعيينه ابنه كولي للعهد، وامتداد إمارته من طرابلس شرقًا إلى أحواز تلمسان غربًا، هذا إلى جانب ما تمتع به عبد الرحمن من قوة وخبرة ودهاء وحزم وهي صفات المؤسسين.

في عام ١٣٦هـ، سيبايَع أبو جعفر المنصور كخليفة بالمشرق، وسيكتب إلى عبد الرحمن يدعوه إلى الطاعة، فأجاب عبد الرحمن بالدعوة لأبي جعفر في المنابر، كما بعث له بهدية متواضعة، والحقيقة أن عبد الرحمن أراد عبر هذه الهدية المتواضعة بعث رسالة ضمنية للمنصور بأن يقطع أمله في أية أموال قد يبعثها الفهريون للخلافة مستقبلًا، سواء أكانت خراجًا أم سبيًا أم أخماس غنائم أم غيرها، ويبدو أن المنصور -وهو السياسي المحنك- فهم رسالة الفهري، فأراد أن يستدرجه للإعلان عن موقفه صراحة، فطالبه بحصة من

السبي الذي طالما ملأ قصور بني أمية قبله، وهنا سيجيبه الفهري إجابة حاسمة: «إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها، فلا تسألني ما ليس قبلي»، وهنا سيعلن الاثنان عما في ضميريهما دون مواربة؛ فأما المنصور، فسيكتب إلى الفهري يهدده ويتوعده، فيما سيجمع الفهري الأعيان والأشراف ويقوم فوق المنبر ويسب المنصور، ثم سيقول:

«إني ظننت أن هذا الجائر يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل، وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نعليَّ هذين[1]».

مثلت هذه الحادثة بداية اختلاف الناس على عبد الرحمن، وفقده لجزء كبير من شرعيته في أعينهم، فأغلبهم رأى خلع عبد الرحمن لبيعة الخلافة العباسية -رغم كونها اسمية- انشقاقًا عن الصف الإسلامي، وأمرًا منكرًا وغير مقبول، الأمر الذي شجع أخاه إلياس الحانق عليه والطامع في ملكه على اغتياله، في أواخر عام ١٣٧هـ.

شكل اغتيال عبد الرحمن النهاية الفعلية للإمارة الفهرية، فلم يستطع إلياس السيطرة على الحكم، إذ سيسقط قتيلًا على يد ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن بعد عدة أشهر، أما حبيب فعلى الرغم من إزاحته لعمه من طريقه وانتقامه لأبيه إلا أنه لن يستطيع استرجاع ملك أبيه، وسيدخل في دوامة من الصراعات والحروب ضد حلف جمع بعض أهل القيروان مع قبيلة ورفجومة المتبنية

(١) الرقيق القيرواني، ص ٧٧.

للمذهب الخارجي، قبل أن يسقط قتيلًا في محرم من عام ١٤٠هـ، وبموته سينتهي الدور السياسي للفهريين بإفريقية باجتياح صفرية ورفجومة للقيروان، وتنكيلهم بأهلها واستباحتهم للحُرَم والمقدسات، إلى أن خلصهم منهم إباضية طرابلس الزناتيون/ الهواريون، بقيادة أبي الخطاب بعد أكثر من عام.

على الرغم من ذلك ستستمر الفوضى والحروب والثورات والقلاقل السياسية في إفريقية عامة، ولن تعرف القيروان بصفتها عاصمة إفريقية الهدوء النسبي إلا في بداية عهد أبي عقال الأغلبي، عام ٢٢٣هـ، وطيلة هذه المدة لم تسجل أية محاولة من الفهريين للوثوب على الحكم ثانية، ما يدل على أن كثرة الحروب أضعفتهم وأفقدتهم ثقلهم العسكري والعصبي.

بعد هذا العرض المختصر يمكننا فهم ما مثله تأسيس مدينة كفاس -لأهل القيروان عامة وللفهريين خاصة- من أمل في حياة آمنة مطمئنة، تمكنهم من تجاوز ما عانوه من اضطرابات، كما يمكننا استنباط الدواعي السياسية، والحالة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي عجلت بهجرة عدد كبير من الأسر إلى عاصمة الأدارسة آل البيت، منذ بداية عهد إدريس الأكبر عام ١٧٢هـ، مرورًا بعهود خلفائه الثلاثة الأوائل، وصولًا إلى عهد الإمام الرابع يحيى بن محمد الذي سيعرف -على التخمين- وصول السيدة فاطمة الفهرية وأسرتها للاستقرار بالمدينة.

***

القرويّون، الجامع الجامعة

تعد القرويون بلا شك أعظم مؤسسة دينية وعلمية بالمغرب، وقد اكتسبت مكانتها وجدارتها من اعتبارات عديدة ومتداخلة؛ بين التاريخي والعلمي والفكري والثقافي والمعماري والحضاري.

فالقرويون هي أقدم جامعات الدنيا العاملة دون انقطاع، حسب كل من منظمة اليونيسكو وموسوعة غينيتس للأرقام القياسية وجمهور المؤرخين والمستشرقين، وهي أول مؤسسة تعليمية تمنح درجة علمية في العالم، وخزانتها العِنانية «نسبة إلى السلطان أبي عنان المريني» هي أول خزانة كتب في العالم تضع قانونًا يبيّن شروط الإفادة منها، كما يفيد النقش الموجود عليها[1]، وصومعتها الحالية هي أقدم صومعة أصيلة لم تتعرض لأي تغيير في العالم الإسلاميّ كلّه، وهي المؤسسة الوحيدة التي عاصرت كل الأسر الحاكمة التي مرت بالمغرب، وهي الوحيدة أيضًا التي احتفظت لنا بلمسة من كل السلالات الحاكمة التي تعاقبت في حكم البلاد، من إمارتي الأدارسة والزناتيين، مرورًا بالإمبراطوريات الأمازيغية الثلاث الكبرى: المرابطين والموحدين والمرينيين، وصولًا إلى دولتي الأشراف الزيدانيين والفيلاليين، أو حتى من التي كان لها اتصال بالمغرب في فترة ما، كالأمويين والفاطميين،

(١) جامع القرويين، ج ١، ص ٤.

وكأنهم جميعًا كانوا يعلمون أن القرويين مستودع وفِيٌّ، وسجل تاريخي لا ينسى، فتنافسوا في ترك أثر يخلد ذكراهم بها، ويضيف إلى مآثرهم مأثرة لن يمحوها الدهر.

إن تعداد مفاخر القرويين يحتاج لصفحات عديدات، كما أن الحديث عن تاريخها يجرنا إلى الحديث عن جزء كبير من تاريخ المغرب وحضارته؛ لوقوف القرويين وراء تحولات كبرى دمغت تاريخ البلاد وصنعت خصوصيتها وتفرّدها عن باقي بلدان عالمنا الإسلامي، وقيادتها لزمن طويل جدًّا لقاطرة المغرب الحضارية والفكرية والعلمية والثقافية، وإنجابها لرجال صنعوا التاريخ وألهموا الأجيال، إلا أن ما لا يذكر كله لا يترك جله، وباختصار شديد سنستعرض تطور القرويين وتحولاتها الكبرى، خاصة المعمارية والعلمية منها، دون الخوض في أدوارها السياسية لأسباب منهجية، مع إلماعة عن بعض أشهر من مر بها من أعلام حسب العصور.

صورة لجانب من صحن جامع القرويين، تظهر فيها الصومعة وأسفلها القبة التي بناها عبد الله بن محمد الشيخ عام ١٠١٨هـ.

***

القرويّون زمن الإمارة الإدريسيّة

بُنيت القرويون الأولى عام ٢٤٥/ ٨٥٩؛ لتكون مسجدًا يستقبل المسلمين لأداء صلواتهم خمس مرات في اليوم والليلة، ومن الطبيعي أن تكون مساحته وتصميمه متناسبًا مع الدور المحدود الذي أسند إليه بادئ أمره، فمن حيث المساحة بلغ قرابة ١٦٠٠ متر مربع، أما من حيث التصميم فقد تألف من أربع بلاطات أفقية، تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة، ومن اثنتي عشرة بلاطة عمودية، تمتد من الجنوب إلى الشمال، خمس منها غربي البلاط الأوسط الممتدّ من المحراب إلى الصحن، والست الباقية شرقي البلاط المذكور، هذا فيما يخص قاعة الصلاة، أما الصحن، فقد جُعل عند نهايتها، وفيه زرعت مجموعة من الأشجار، وقد كان للمسجد يوم بني أربعة أبواب، إضافة إلى صومعة قليلة الارتفاع، نصبت مسامتة تمامًا للمحراب، حيث المحل المعروف اليوم بالعنزة.

سيستمر المسجد في أداء مهمته المحصورة في استقبال المصلين لأداة الرواتب إلى حدود عام ٣٢١/ ٩٣٣، حيث سيقوم عامل الفاطميين بفاس حامد بن حمدان الهمذاني بنقل الخطبة إليه من مسجد الشرفاء؛ بسبب ضيق الأخير وعدم قدرته على استيعاب الأعداد الكبيرة من المصلين أيام الجُمع، وبالتالي سيصبح القرويون ابتداء

من هذا التاريخ مسجد فاس الجامع[١]، ويُجعل له منبر لأول مرة، وكان أول خطيب خطب به الشيخ الفقيه الصالح عبد الله بن علي الفارسي، ويمكن اعتبار هذا الخطيب أول رجال القرويين، وقد أورد الحافظ عبد الحي الكتاني قائمة بأسماء من استطاع الوقوف عليهم من خطباء القرويين، من يوم نقلت إليه الخطبة إلى زمانه[٢].

***

(١) يختص المسجد بأداء الصلوات الخمس دون سواها، بينما يحتضن الجامع (بمفهومه الدال على الاجتماع) أو المسجد الجامع أو -كما نسميه بالمغرب- الجامع الكبير أو الجامع الأعظم -إضافة إلى الصلوات الخمس- كل صلاة فيها خطبة؛ كصلاة الجمعة، وصلاتي العيدين، وصلاة الاستسقاء، إضافة إلى المناسبات الدينية الكبرى، كما أن البيعة كانت تؤخذ فيه لولي أمر المسلمين الذي لا يؤدي الصلوات إلا فيه، وعلى منبره كانت تذاع القرارات العامة، وتناقش الخطوب الجسام، ويعلن النفير للجهاد وغيرها من الأمور المهمة.

(٢) راجع: ماضي القرويين ومستقبلها، ص ٤٨.

القرويّون زمن الإمارة الزّناتيّة

في عام ٣٤٤/ ٩٥٥ أي بعد قرابة ٢٤ عامًا من نقل الخطبة إليه، ستضيق جنبات القرويين بعُمّارها، وتصير بحاجة ماسة للزيادة فيها، وهو الأمر الذي سينبري له الأمير الزناتي أحمد بن أبي بكر، الموالي لأمويي الأندلس، فبعد أن أطلع عبد الرحمن الناصر على نيته في ترميم الجامع والزيادة فيه، زوده الخلفية الأموي بمبلغ كبير من أخماس ما غنمه المسلمون في حروبهم بالأندلس، وبهذا المال الحلال الخاضع لشروط القرويين سيشرع الأمير الزناتي في عملية التوسعة التي ستدخل على بناية القرويين الأولى تغييرات كبيرة، تمثلت في الزيادة في قاعة الصلاة -التي احتُفظ بها- بمعدل أربع بلاطات غربًا، وبخمس بلاطات شرقًا، بالتوازي مع جدار القبلة، وعموديًّا، بزيادة ثلاثة صفوف من البلاطات المقابلة لجدار القبلة (أساكيب) التهمت الصحن القديم، وعلى إثر هذه الأساكيب الثلاثة رُسم الصحن الجديد الذي جاء أصغر من سابقه، وبه أحاط جناحان من جهة الشرق والغرب احتوى كل منهما على أربع بلاطات عمودية من خمس أساكيب قصيرة، وفي مؤخرة الصحن أضيف بلاط أفقي مقابلًا لجدار القبلة، وقد اقتضت هذه التوسعة الجديدة إضافة أربعة أبواب أخرى، أما الصومعة، فإنها هدمت تمامًا، وعوضت بصومعة أخرى

كللت بتفافيح مموهة بالذهب، وإلى جانبها سيف الإمام إدريس بن إدريس، وهذه الصومعة[١] هي الباقية بالقرويين إلى يوم الناس هذا، وبانتهاء الأشغال بعد عام من انطلاقها، أصبحت مساحة القرويين ٤٠٠٠ متر مربع.

عام ٣٨٧/ ٩٩٧ سيدخل عبد الملك المظفر فاس بعد تغلبه على زيري بن عطية[٢]، وفي مدة إقامته بالمدينة سيرى عبد الملك أن يعتني بالقرويين، كما هي العادة، فصنع لها منبرًا جديدًا، استمتع طيلة مدّة إقامته بالمدينة بسماع اسمه واسم والده وخليفته يتردد من فوقه، على أن أهم ما تنبه إليه عبد الملك بعد ملاحظته أن الناس ما زالت تعتمد على البئر التي حفرتها السيدة فاطمة للوضوء، هو تزويد القرويين بنظام مائي عصري، يضمن لها تزويدًا منتظمًا، يسهل من عملية الوضوء، ويجعل عمّار الجامع يستعيضون عن الدلو والحبل بميضأة صغيرة، ولم يكن الجانب الجمالي ليفوته وهو ابن قصور قرطبة، فحلى المنشأة ببعض النقوش، وأدخل عليها بعض الجماليات، كما زودها بثريا عظيمة.

لا بد أن حالة الاضطراب التي عرفتها فاس نتيجة للصراع الفاطمي -الأموي المغراوي- اليفرني خلال هاته الفترة المضطربة قد حدّت من توهج العلم وتفتق وروده اليانعة، لأن العلم عمومًا يحتاج بيئة مستقرة يزدهر وتمتد فيها فروعه، ومتى ما كان طالب العلم مهموم البال مشغول الخاطر مبتلى في وطنه بكثرة القلاقل والثورات

(١) تبلغ سعة كل ضلع من أضلاعها الأربعة أربعة أمتار وخمسة وتسعين سنتيمترًا، أما ارتفاعها الكلي فيبلغ ستة وعشرين مترًا وخمسة وسبعين سنتيمترًا. للاستزادة راجع: جامع القرويين، ج ١، ص ٥٦.

(٢) تعرضنا لهاته الأحداث عند حديثنا عن فاس في ترجمة إدريس بن إدريس.

والحروب، انصرف عن طلب العلم والارتقاء فيه، وانشغل بما يواجه وطنه من تحديات وأزمات، هذا دون أن نذكر علماء هاته الفترة الذين آثروا مغادرة المدينة والبلاد ككل؛ بحثًا عن وطن آمن يستوعبهم ويتيح لهم إمكانات نشر ما حازوه من علوم ومعارف، هذا إضافة إلى ما ميّز هاته الفترة من ضعف لحركة التدوين.

لكن على الرغم من كل ما قيل لا يمكن تصور بوار سوق العلم جملة، كون العلم مرتبطًا ارتباطًا وجوديًّا بالدّين، والجامع عبر تاريخ الإسلام لم يكن مكانًا للعبادة فقط، بل مجالًا للدارسة والتعلم وتبادل الأفكار وتلاقحها، خاصة وقد طرأت على الناس في هذه الفترة أحداث وأحوال ونوازل لا عهد لهم بها، وعصفت بهم رياح خلافتين متناقضتين تمامًا سياسيًّا وفكريًّا ومذهبيًّا، وكل هذا يحتاج لفقهاء وعلماء وقضاة يسددون الناس ويرشدونهم السبيل القويم، ويضمنون نقل العلم إلى الأجيال الصاعدة ضمانًا لسيرورة الدين وازدهاره، وهو الأمر الذي يشدد عليه ابن أبي زرع بقوله: «وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والصلحاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم، فهي في القديم والجديد دار علم وفقه وحديث وعربية، وفقهاؤها الفقهاء الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب[1]»، ولعل مما يمكن الاستئناس به على أنه كان للقرويين إشعاع علمي يتجاوز فاس خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخها، ارتباط شخصية كـ «جيربرت دووريـاك» بها.

(١) روض القرطاس، ص ٣٦.

كان جيربرت هذا طالبًا فرنسيًّا للاهوت، بمدينة فيش شمال برشلونة، جذبه إشعاع قرطبة العلمي للالتحاق والدراسة بها، وبعد أن خَبِرَ العربية وتزود بمبادئ العلوم التي طورها المسلمون، رأى لسبب موضوعي -لا نستطيع لشح المصادر رصده- أن يعبر البحر نحو البلاد التي انطلق منها الفتح أساسًا، المغرب، وبالذات إلى قاعدته فاس وجامعتها القرويين، ولا نعلم كم من الوقت بقي جيربرت بالقرويين، إلا أن المنطقي أنه لم يغادرها حتى حصّل ما جاء إليها من أجله، وما نحن متأكدون منه هو أنه عاد إلى أوروبا الغارقة في ظلمات الجهل وقتئذ ليتقلد أعلى منصب في العالم المسيحي ما بين سنتي ٩٩٩-١٠٠٣، تحت اسم «البابا سيلفستر الثاني»، حاملًا معه ما استطاع تعلمه من نظريات وقوانين ونظم وأفكار وعلوم، اعتبرتها أوروبا وقتذاك سحرًا أو عملًا من أعمال الشيطان[١].

***

(١) للاستزادة راجع: جامع القرويين، ج ١، ص ١١٥.

القرويّون زمن الدّولة المرابطيّة

عُـرف المرابطـون باسـم الفقهـاء، ولا أقـدر مـن فقيـه عـلى تقديـر مكانـة القرويـين، بوصفهـا أعظـم المنشـآت الدينيـة في البـلاد، ولقـد اتجهـت عناية هـذه الدولـة اتجاهًـا كبـيرًا إلى القرويـين، ففـي عهدهـم سـتعرف توسـعة مهمـة أعطـت للقرويـين تصميمهـا الحـالي تقريبًـا، إذ إن كل مـا سـيدخل عليـه مـن تغيـيرات بعـد التوسـعة المرابطيـة سـيكون عبـارة عـن تجهيـزات وملاحـق، فبعـد توسـعة عـام ٥٠٥/ ١١١١، التـي قـام بهـا القـاضي محمـد بـن عيسـى السـبتي، والتـي لم يكـن لهـا أثـر يذكـر، اجتمـع فقهـاء المدينـة وأشـياخها وقـرروا ضرورة الزيـادة في القرويـين، لضيقهـا أيـام الجمـع بالمصلـين واضطرارهـم للصـلاة في الطـرق والأسـواق، فأنابـوا عنهـم القـاضي الفقيـه محمـد بـن داود، الـذي توجـه إلى مراكـش، وقـام بتوضيـح الأمـر لأمـير المسـلمين عـلي بـن يوسـف، واسـتأذنه في الأمـر، ولم يكـن مـن المتوقـع مـن الأمـير إلا أن يرحـب بالموضـوع ويتحمـس لـه، فأعطـى الإذن للقـاضي، وفتـح أمامـه أبـواب بيـت مـال المسـلمين ليأخـذ منـه مـا يحتاجـه مـن نفقـة، غـير أن القـاضي اعتـذر بـأن للقرويـين أحباسًـا كثـيرة تغنيهـا إن شـاء الله عـن مـال غيرهـا، فأمـره الأمـير بالتحـري في تحصيـل الأمـوال مـن الشـبهات، وبرجـوع القـاضي إلى فـاس، دشـن حملـة كبـيرة هدفـت إلى تخليـص الأحبـاس مـن أيـدي مـن أكلوهـا وحسـبوها

من جملة أموالهم، ثم أوكلها لأشخاص آخرين يوثق في دينهم، كما حصّل كل الغلال والديون المترتبة من الأحباس من أيدي أصحابها، فاجتمع له من ذلك مبلغ كبير جدًّا، بلغ ثمانين ألف دينار، وبعد أن اشترى الأملاك والديار المجاورة للمنشأة من أصحابها بالوجه الشرعي، شرع في عمليات التوسعة معتمدًا على ما يخرج من جوف الأرض من مواد، وعلى ما يسقى من بئرها من ماء اقتداء بالمؤسِسة، وذلك عام ٥٢٨/ ١١٣٤، وقد تبارى الصناع المهرة في إفراد القرويين بأتقن وأجمل ما أنتجته أناملهم، ومنهم من باع ميراثه لإنفاقه على العمل المكلف به، ما يدل على المكانة الجليلة للقرويين في قلوب أهل فاس، وإيثارهم إياها على كل ما سواها.

وعن أهم ما أسفرت عنه التوسعة، فقد كان زيادة ثلاثة أساكيب من إحدى وعشرين قوسًا من جهة الجنوب، والزيادة في ارتفاع البلاط الأوسط حيث المحراب، وتجميل القباب ونقشها بالآيات القرآنية والمقربصات، والتيجان والنجوم والأشكال النباتية والهندسية، التي لا تحيّر الناظرين ولا تشغل المصلين، كما بُلّطت الأرضية تبليطًا متقنًا يستجيب للمعايير المعمول بها، وكذلك أصلح السقف وأُلبس السطح لباسًا من القرمود، يحول دون تجمع مياه الأمطار به، أما الصحن، فقد تمتع ببعض الرفاهية، حيث زُوِّدَ بمظلات من الكتان تعمل كمكيفات للهواء، وبعد انتهاء الأعمال أصبحت مساحة القرويين قرابة نصف هكتار مربع، تتسع لما بين ثلاثة عشر ألف واثنين وعشرين ألف

مصلٍّ، باحتساب الرحاب التي يصلي فيها الناس يوم الجمعة[١]، ثم أُلحق بها بعد بضع سنوات جامع للجنائز، «وهو الأقدم من نوعه في الغرب الإسلامي»، ومقصورة للإمام، زودت بما يحتاجه استعدادًا للصلاة والخطبة، إضافة إلى مجلس للقاضي، أما عن أكبر آثار المرابطين بالقرويين، فهو بلا شك المنبر الذي يعتبر من أفخم التحف المغربية وأروعها، ومثالًا للمنبر المغربي المتطور عبر الزمن، ومن الأمور المثيرة للإعجاب، أن صانع هذا المنبر ليس إلا أحد علماء القرويين، وهو الشيخ الأديب أبو يحيى العتاد، ولا أدل على دقة صنع المنبر من أنه لا يزال إلى يومنا هذا يؤدي وظيفته، وبالعموم، فقد غيرت هاته الأعمال المرابطية التوسيعية، التي اختتمت عام ٥٣٨/ ١١٤٤، من شكل القرويين الزناتية، وأدخلت عليها التغييرات الجمالية المعروفة وقتئذ، مع الحرص على احتفاظ القرويين بأصالتها التي يغلب عليها التقشف والزهد اللذان لا يزيدانها إلا هيبة وجلالًا.

***

(١) انظر وقارن: روض القرطاس، ص ٦٥، وجني زهرة الآس، ص ٧٨.

القرويّون زمن الخلافة الموحديّة

استمرت عناية الموحدين بالقرويين كسابقيهم، ورغم أن دخول الجيوش الموحدية إلى فاس دفع أهلها لطمس النقوش المرابطية؛ خوفًا من أن يفسدها عبد المؤمن بن علي؛ لما سُمع عن اخشوشانه وتقشفه، إلا أن القرويين ستحتفظ لهم كما احتفظت لغيرهم من صناع الحضارة المغربية ببصمات مهمة.

كانت القرويون إلى هذا العهد قد جمعت من الأحباس ما يصعب إحصاؤه، ومرجع هذا الغنى الوقفي تنافس الناس في خدمتها بأموالهم، وتحبيس العقارات والأراضي الزراعية عليها، وإتحافها بالنفيس من التحف والمدخرات، حتى غدت خزينتها تنافس بيت مال المسلمين، ومن هنا جاءت الفكرة ببناء مستودع تحت أرضي عام ٥٨٠/ ١١٨٤، تحفظ فيه أموال القرويين والنفيس من تحفها، ولأمان هذا المستودع -البنك- تسابق الناس على حفظ أماناتهم به، أما العمل الثاني المهم الذي عرفته القرويين في العهد الموحدي، فهو جلب الماء إليها، وبناء أول دار للوضوء بها، وقد تكفل بهذا العمل الحيوي أحد المحسنين من مال تم التأكد من طيبته، كما هو مقرر بعد إذن الخليفة الموحدي طبعًا، وذلك في عام ٥٩٦/ ١٢٠٠، ثم بعدها بثلاث سنوات ستقام أول خصّة سيعرفها صحن القرويين،

ونظـرًا لنبـوغ مهنـدسي هـذه الدولـة في تخطيـط المنشـآت المائيـة، فـإن الخصـة الحسـناء سـتأتي عجيبـة المنظـر، آيـة في الإحسـان والإتقـان، لدرجة حركـت قرائـح الشـعراء فتنافسـوا في وصفهـا، أمـا عـن أفخـم مـا تركـه الموحـدون بالقرويـين فهـي الثريـا الكـبرى، التـي تحتـوي عـلى نحـو ألـف كاس مـن الزجـاج[1]، والتـي لا مثيـل لهـا في كل العـالم الإسـلامي أصالـة وإتقانًـا وإبداعًـا، يخلّـد عبقريـة المعلـم الفـاسي، ويـدل عـلى نبوغـه الفنـيّ، وقـد صنعـت الثريـا الكـبرى لتحـل محـل الثريـا الزناتيـة التـي أصابهـا البِلى والتصـدع، وأطنـب الشـعراء في وصفهـا العجيـب ومدحهـا، كـما لم يفعلـوا مـع تحفـة قبلهـا، ومـن حسـن حظنـا أن الثريـا مـا تـزال إلى اليـوم محتفظـة بكامـل بهائهـا، باقيـة حيـث علقهـا صنّاعهـا مشـاعًا للناظريـن ومتعـة للمتأملـين، وقبـل أن تنهـار الخلافـة الموحديـة كانـت القرويـون وضواحيها مـزودة بإنـارة كاملـة تنـير سـبل المصلـين، وتنفـي الريبـة ووحشـة الظـلام عـن هـذه البقعـة الطاهـرة، أمـا عـن عـدد أبوابهـا فقـد وصـل في حـدود هـذا العهـد إلى اثنـين وعشريـن بابًـا.

في نهايـة العهـد المرابطـي وبدايـة العهـد الموحـدي سـتواجه القرويـين تحـولات كبـيرة، مرتبطـة بتوجـه الحكومـة الجديـدة ومبادئهـا المخالفـة تمامًـا لسـابقتها، وبـما أن منـبر القرويـين هـو منـبر المغـرب، فقـد كان لا بـد أن يدعـى فيـه للخليفـة الموحـدي والمهـدي المعصـوم كرمـز أكيـد للسـيادة، بعـد أن كان يدعـى فيـه للأمـير المرابطـي والخليفـة العبـاسي، وأن تنـشر من فوقـه مبـادئ المذهـب الجديـد، وهـو الأمـر الـذي أدى لانقسـام علمائهـا

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ١٧.

بين مؤيدين للحكم والعقيدة الموحدية، وآخرين متشبثين بالتوجه المذهبي الذي فرضه الفقهاء المرابطون بالقوة أحيانًا وتبنته الجامعة منذ أول أيامها، ولنا أن نتصور المناظرات والجدالات والكتب التي درست ونوقشت نتيجة للصراع الفكري والعقدي بين المدرسة السلفية التقليدية القديمة المتحجرة التي حاربت الفلاسفة والمتكلمين وأحرقت كتبهم، وبين المدرسة العقلية التأصيلية الجديدة التي فتحت أبواب الاجتهاد على مصراعيها، وإقبال الناس الكبير على الدرس والتعلم والعب من هذا النشاط الفكري الكبير.

أما عن رجال القرويين في هذه الفترة، فيقول عنهم صاحب الاستبصار في سياق حديثه عن فاس: «وذكرنا أنه كان في الدولة اللمتونية رجال فضلاء عقلاء علماء حلماء، وشهرتهم فيها أغنت عن ذكرهم[1]»، أما ابن عبد الملك المراكشي الذي عاصر أواخر العهد الموحدي، فقال في معجمه: «كان بفاس من الفقهاء الأعلام، الأجلة أعيان الأنام، ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي قاعدة المغرب، ودار العلم والأدب، لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم، وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم[2]».

وعن أبرز من استقر أو جلس بالقرويين للدراسة أو للتدريس خلال العهد المرابطي – الموحدي، فنذكر على سبيل الاستئناس، لا الحصر:

(١) الاستبصار، ص ١٨٣.

(٢) الذيل والتكملة، ج ٨، ص ٢٧.

قاضي القضاة عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي[١].

الحافظ الفقيه المحدث أبا عبد الله محمد بن أحمد بن جامع بن جَرّاح الجياني، المتوفى عام ٥٤٦هـ[٢].

الحافظ الفقيه الزاهد أبا الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم، المتوفى عام ٥٥٩هـ[٣].

الإمام الصالح الأوحد في علم الاعتقاد أبا عمرو عثمان بن عبد الله السلاجي صاحب العقيدة البرهانية، المتوفى عام ٥٦٤هـ[٤].

الحافظ المحدث أحمد بن عبد الصمد بن أبي عَبيدة القرطبي، المتوفى عام ٥٨٢هـ[٥].

المقرئ الأديب خطيب القرويين أبا الحسن علي بن موسى الشهير بابن النقرات، المتوفى بعد عام ٥٩٣هـ[٦].

القطب الوتد المربي أبا مدين الغوث شعيب بن الحسن الإشبيلي، المتوفى عام ٥٩٤هـ[٧].

---

(١) انظر: البيان، ج ١، ص ٣١٢.
(٢) انظر: الذيل والتكملة، ج ٣، ص ٤٩٢.
(٣) التشوف، ص ١٦٨.
(٤) التشوف، ص ١٩٨.
(٥) انظر: الذيل والتكملة، ج ١، ص ٤٢٠.
(٦) انظر: التكملة لكتاب الصلة، ج ٣، ص ٢١٩، والذيل والتكملة، ج ٣، ص ٣٤٧.
(٧) راجع: التشوف، ص ٣١٩.

المتكلّم الأصولي العارف الزاهد محمد بن علي بن عبد الكريم الفَنْدَلاوي بن الكتاني الفاسي، المتوفى عام ٥٩٧هـ[١].

فقيه المالكية في وقته الإمام الورع أبا محمد يسكر بن موسى الجورائي ثم الغفجومي، المتوفى عام ٥٩٨هـ[٢].

الفقيه المستبحر قاضي فاس أبا بكر بن خلف المواق الأنصاري، المتوفى عام ٥٩٩هـ[٣].

العددي الموثّق الأديب المتفنن أبا محمد بن الياسمين الفاسي، المتوفى عام ٦٠١هـ[٤].

الحافظ المحدث الشهير أبا القاسم عبد الرحيم بن عيسى الفاسي المعروف بابن الملجوم، المتوفى عام ٦٠٣هـ[٥].

المقرئ المحدث النحوي أبا ذر مصعب بن محمد الخشني الجياني، المتوفى عام ٦٠٤هـ[٦].

الأصولي المتكلم المحدث المتفنن أبا الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن نموي الفاسي، المتوفى عام ٦١٤هـ[٧].

---

(١) الذيل والتكملة، ج ٥، ص ٢٢٦.
(٢) نيل الابتهاج، ص ٦٤٠، الفكر السامي، ج ٢، ص ٢٦٨.
(٣) التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ١٨٠.
(٤) التكملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ٣٠٧، والغصون اليانعة، ص ٤٣.
(٥) التكملة لكتاب الصلة، ج ٣، ص ٦٣.
(٦) التكملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٨٨.
(٧) التكملة لكتاب الصلة، ج ٤، ص ٢٢٦.

إمام القرويين وخطيبها في زمانه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشلبي، المتوفى عام ٦٢٨هـ[١].

الإمام العلامة الحافظ المحدث أبا الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن القطان الكتامي الفاسي، المتوفى عام ٦٢٨هـ[٢] «له تآليف مطبوعة».

المحدث المقرئ المفسر النحوي الأديب، خطيب القرويين وإمامها في زمانه محمد بن يوسف بن عمران المزدغي الفاسي، المتوفى عام ٦٥٥هـ[٣].

محدّث المغرب أبا العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن فرتون السلمي الفاسي، المتوفى عام ٦٦٠هـ[٤].

وغير هؤلاء كثير.

وقد ساهم هؤلاء العلماء وغيرهم ممن لم نذكرهم في تحويل القرويين إلى جامعة مستقطبة، يقصدها الطلبة الأفّاقون من كلّ البلاد، وتمنح بها الإجازات في مختلف العلوم، ويكفي أن نذكر أن أول إجازة في الطّب البشري والبيطري منحت في العالم هي تلك التي منحتها جامعة القرويين عام ٦٠٣هـ، أي زمن الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، لطبيب يدعى عبد الله بن صالح الكتامي، تحت إشراف

(١) انظر: الذيل التكملة، ج ٤، ص ٤٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٠٦.
(٣) انظر: الذيل والتكملة، ج ٥، ص ٢٦٧.
(٤) تاريخ الإسلام، ج ٤٨، ص ٤٠٩، وفهرس الفهارس، ج ٢، ص ٩١٠.

لجنة علمية، تقدمها الطبيب النباتي الذي ينعت بأنه أول صيدلاني في التاريخ ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي الشهير بابن البيطار، المتوفى عام ٦٤٦هـ.

ولا تزال النسخة الأصلية من هذه الشهادة العلمية المكتوبة على رق غزال محفوظة بمديرية التاريخ العسكري بالرباط، والشهادة موثقة عدليًّا، ومشهود بصحتها من طرف قاضي مدينة فاس وقتئذ عبد الله بن الطاهر.

***

القرويّون زمن الدّولة المرينيّة – الوطّاسية

اتخذ المرينيون من فاس عاصمة لهم، وقد عرفت هذه الدولة بحبها للعلم والعلماء والتعمير والبناء، فوصلت العمارة المغربية في عهدهم مرحلة النضج خاصة في جانبها الجمالي، فكان لا بد أن تنال القرويين على ما وصلته من عظمة معمارية لمحة من الفن المريني تخلد ذكراهم بها، ولعل أهم ما أضافه المرينيون للقرويين إضافة إلى الترميم والصيانة التامة لما بناه الأولون، هو جلب الماء إليها للمرة الثالثة من أحد العيون القريبة من فاس، وإعادة بناء جدارها الشمالي بأبوابه الأربعة، وأروقة النساء وما تحتها من مخازن، وصنع المحراب الصيفي (العنَّزة)، وبناء غرفة (الغريفة) للموقتين بالصومعة التي لبسّوها بالجص، وحرصوا على تزويد هاته الغريفة بآخر مستجدات صناعة التوقيت من ساعات مائية وإسطرلابات، ولا تزال الغريفة تحتفظ إلى يومنا بأقدم ساعة مائية موجودة في العالم، وهي المعروفة بساعة الجايّ، إضافة إلى بناء برج النفارين المخصص لتنبيه الناس في شهر رمضان إلى وقت الإفطار والإمساء.

وإذا كانت الثريا الكبرى أعظم ما تركه الموحدون بالقرويين في مجال الإنارة، فإن المرينيين علقوا بقباب القرويين ثريات هي في الأصل نواقيس كنسيّة غنمها المرينيون من حروبهم مع القشتاليين بالأندلس،

متأسّين في ذلك بالموحدين الذين دشّنوا هاته السُنّة، لتذكير كل من يدخل القرويين بمجد أجداده وتحفيزه للحفاظ على موروثهم واقتفاء سنتهم، كما أحدثوا خلوة عرفت بخلوة الأسبوع، خصصت لقراءة القرآن حتى كان يختم بها كل أسبوع، كما ألحقوا بالجامعة مصرية للأئمة والخطباء، ومقصورة للمفتي.

وفي إطار مواكبتهم للتطور العلمي للجامعة، أحدث السلطان المثقف أبو عنان خزانة كتب خاصة بالجامعة، وأوقف عليها ذخائر الكتب ونفيسها خدمة لطلبة العلم، وجعل لها -كما قلنا- قانونًا يبين شروط الإفادة منها هو الأول في التاريخ المكتبي العالمي، وبإزائها أحدث خزانة أخرى خاصة بالمصاحف، هذا إضافة إلى المدارس التي بناها المرينيون بجانب القرويين، لاحتضان من لم تسعهم القرويين من طلبة وإيوائهم؛ كمدرسة العطارين، والمدرسة المصباحية، ومدرسة الحلفاويين، إضافة إلى المساجد الفرعية التي ألحقت بالجامعة والتزمت بمنهجها التعليمي بهدف تخفيف الضغط عن المنشأة التي لم تكن تستوعب الكراسي الكثيرة بها.

وبالمجمل فقد عرفت القرويين في العهد المريني نشاطًا علميًّا بارزًا، وكثرت فيها كراسي العلم حتى بلغت مائة وأربعين كرسيًّا، مع الأخذ بالاعتبار المكانة التي يجب أن ينالها العالم قبل أن يتصدر إحدى الكراسي[1]، وقصدها الطلبة من سائر البلاد والأقاليم، ونبغ فيها مجموعة كبيرة من العلماء الذين كان تخرجهم منها كافيًا لرفع صيتهم، حتى صار القول عن عالم ما أنه «أخذ من القرويين»

(١) راجع: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٧٠.

دليلًا على تضلعه في العلم وبروزه فيه، وقد استفادت القرويين فيما وصلت إليه من عناية سلاطين المرينيين بالعلم والتعليم ومشاركتهم في النقاشات والندوات والدروس، بل وجلوس بعضهم بالقرويين لتحصيله، وأيضًا من اضطراد عمليّة الوقف، فقد غطّت الأوقاف كلّ النفقات المتعلقة بإيواء الطلبة وإطعامهم وكسوتهم وتدريسهم، كما جعلت أوقاف على كراسيٍّ بعينها؛ ككرسي المحراب الذي وقف عليه عام ٦٥١هـ ٢١ عقارًا، وكان مخصصًا لدرس التفسير والتحلية، وكرسي القاضي الذي وصل الموقوف عليه ٨٦ عقارًا، وجعلت أوقاف أخرى لدراسة كتب بعينها، كالصحيحين، وفتح الباري لابن حجر، ورسالة ابن أبي زيد، ومختصر ابن الحاجب، وصغرى السنوسي، ونظم ابن زكري، وغيرها.

أما عن أبرز من مر بالقرويين خلال هاته الفترة تدريسًا وتحصيلًا فهم أنفسهم أبرز الوجوه العلمية في هاتين الدولتين، ويكفي أن نذكر على سبيل الاستئناس:

المحدث العالم المتفنن الرحالة أبا عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر ابن رُشَيد السبتي، المتوفى عام ٧٢١هـ[١] «له كتب مطبوعة».

الأستاذ الإمام النحوي المقرئ صاحب الآجروميّة، أبا عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن داود الصنهاجي بن آجروم، المتوفى عام ٧٢٣هـ[٢].

(١) راجع: الإحاطة بأخبار غرناطة، ج ٣، ص ١٠٢.

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص ج ١، ص ٢٣٨، وأعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، ص ٤١٦.

الفقيه النحوي الفرضي مقرئ القرويين والمغرب كله أبا الحسن علي بن محمد بن علي التسولي التازي، المشهور بابن بري، صاحب الدرر اللوامع، المتوفى عام ٧٣١هـ[١].

ذا الوزارتين العالم المتفنن الأديب الشهير لسان الدين بن الخطيب، المتوفى عام ٧٧٦هـ.

الإمام العالم الفقيه المفتي أبا عمران موسى بن محمد بن معطي الفاسي، المتوفى عام ٧٧٦هـ[٢].

الإمام النحوي المقرئ شارح الألفية وغيرها أبا زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي الفاسي، المتوفى عام ٨٠١هـ[٣].

المؤرخ العلامة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون، المتوفى عام ٨٠٨هـ[٤]، والذي لا تزال مخطوطة أصلية لكتابه العبر بخزانة الجامعة، أوقفها بنفسه عليها.

حافظ الغرب الفقيه العلامة المحدث أبا القاسم عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي، المتوفى عام ٨٣٧هـ[٥].

---

(١) كفاية المحتاج، ج ١، ص ٣٤٦.

(٢) نيل الابتهاج، ص ٦٠٤، ودرة الحجال، ج ٣، ص ٥.

(٣) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، ص ٣٧٢، ونيل الابتهاج، ص ٢٥٠، والضوء اللامع، ج ٤، ص ٩٧، وديوان الإسلام، ج ٤، ص ١٨٧.

(٤) الإحاطة بأخبار غرناطة، ج ٣، ص ٣٧٧، وكفاية المحتاج، ج ١، ص ٢٧٠.

(٥) نيل الابتهاج، ص ٢٧٠، ودرة الحجال، ج ٣، ص ٢٨١، والمجمع المؤسس، ج ٣، ص ٢١٦.

الإمام القطب العلم الكبير المشهور محمد بن أحمد بن محمد، الشهير بابن مرزوق الحفيد التلمساني، المتوفى عام ٨٤٢هـ[١].

مفتي المغرب وإمام القرويين وخطيبها الحافظ المحدث القطب شيخ الجماعة فقهاء وصوفية أبا محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي الفاسي، المتوفى في محرابه عام ٨٤٩هـ[٢].

الإمام الحافظ العلامة مفتي المغرب أبا عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد بن محمد القوري، المتوفى ٨٧٢هـ[٣].

صاعقة زمانه الرئيس المفوه خطيب القرويين وإمامها المتولّي قيادة الثورة التي أطاحت بالحكم المريني أبا محمد عبد العزيز بن موسى الوريغلي الفاسي، المتوفى عام ٨٨٠هـ[٤].

محتسب الصوفية الشيخ الإمام العلم القطب الغوث صاحب التآليف البديعة أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزرّوق المتوفى عام ٨٩٩هـ[٥].

---

(١) نيل الابتهاج، ص ٤٩٩، والمجمع المؤسس، ج ٣، ص ٢٦٣، والضوء اللامع، ج ٧، ص ٥٠، وثبت أبي جعفر البلوي، ص ٤٤٧.

(٢) نيل الابتهاج، ص ٢٣١، والضوء اللامع، ج ٥، ص ٦٧، ودرة الحجال، ج ٣، ص ٥٣، ومما ذكر في ترجمته أنه كان يشترط العزل في النكاح، فرارًا من الولد لفساد الزمان.

(٣) نيل الابتهاج، ص ٥٤٨، والضوء اللامع، ج ٨، ص ٢٨٠، وجذوة الاقتباس، ص ٣١٩.

(٤) درة الحجال، ج ٣، ص ١٢٧، ونيل الابتهاج، ص ٢٧٥، وبالرجوع إلى الأحداث التي رافقت هاته الثورة نستبين مقام إمام القرويين وخطيبها وتأثيره الكبير في قلوب الناس. انظر: الاستقصا، ج ٤، ص ٩٨ وما يليها، وأخبار الدولتين للزركشي، ص ١٥٦، ودرة الحجال، ج ٣، ص ١٥٦.

(٥) دوحة الناشر، ص ٤٨، والضوء اللامع، ج ١، ص ٢٢٢، ونيل الابتهاج، ص ١٣٠.

الإمام العلامة محمد بن محمد بن أحمد المشهور بابن مرزوق الكفيف المتوفى عام ٩٠١هـ[١].

الإمام الفقيه الحافظ المفتي صاحب كتاب المعيار المعرب أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني المتوفى عام ٩١٤هـ[٢].

القاضي المجاهد السائح المربي الكبير والعارف بالله الشهير أبو الحسن علي بن ميمون بن أبي بكر الغماري المتوفى عام ٩١٧هـ[٣] (له تآليف مطبوعة).

الإمام القاضي الخطيب الفقيه المتفنن أبا عبد الله محمد بن أحمد ابن غازي اليفرني المكناسي، المتوفى ٩١٨هـ[٤] «له تآليف مطبوعة».

القاضي المفتي الإمام العلامة المتفنن أبا مالك عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي الفاسي، المتوفى عام ٩٥٥هـ[٥].

الرحالة المؤرخ أبا علي الحسن بن محمد الوزَّان الزيّاتي الفاسي المشهور بليون الإفريقي، المتوفى بعد عام ٩٥٧هـ[٦].

---

(١) نيل الابتهاج، ص ٥٧٤.

(٢) دوحة الناشر، ص ٤٧، ونيل الابتهاج، ص ١٣٥، وجذوة الاقتباس، ص ١٥٦.

(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ج ١، ص ٢٧٢، ودوحة الناشر، ص ٢٨، وشذرات الذهب، ج ١٠، ص ١١٧.

(٤) دوحة الناشر، ص ٤٥، ونيل الابتهاج، ص ٥٨١، ودرة الحجال، ج ٢، ص ١٤٧.

(٥) دوحة الناشر، ص ٥٢، ودرة الحجال، ج ٣، ص ١٣٩.

(٦) راجع كتابه: وصف إفريقيا.

وغـير هـؤلاء كثـير، ويكفـي الرجـوع إلى كتـب تراجـم هاتـه الفـترة المغربيـة منهـا والمشرقيـة، لنجدهـا طافحـة بتراجـم أعـلام القرويـين.

ولنسـق هنـا شـهادتين عـن الحركـة العلميـة بالقرويـين خـلال هاتـه الفـترة؛ الأولى للعـارف بـالله الشـهير سـيدي عـلي بـن ميمـون الغـماري، دفـين جبـل مجـدل معـوش بلبنـان، وقـد دخـل فـاس عـام ٨٨٧هـ طالـب علـم، وبقـي بهـا يـدرس أربعـة عـشر عامًـا، وألـف فيـها بعـد رسـالة وصـف فيهـا نظـام الدراسـة بالقرويـين وطريقـة التدريـس وأوقاتـه، والعلـوم المدرّسـة، كـما وصـف شـيوخها عـلى ضـوء مـا رآه بغيرهـا مـن مـدارس، ونقتبـس مـن قولـه:

«مـا رأيـت مثلهـا -يقصـد فـاس- ومثـل علمائهـا في حفـظ ظاهـر الـشرع العزيـز بالقـول والفعـل، وغـزر الحفـظ لنصـوص إمامهـم الإمـام مالـك، وحفـظ سـائر العلـوم الظاهـرة، مـن الفقـه والحديـث والتفسـير، وحفـظ نصـوص كل علـم مثـل النحـو والفرائـض والحسـاب وعلـم الوقـت والتعديـل والتوحيـد والمنطـق والبيـان والطـب، وسـائر العلـوم العقليـة، كل ذلـك لا بـد فيـه عندهـم مـن حفـظ نـص ذلـك الفـن، ومـن لم يسـتحضر النـص عـلى مسـألة مـا في علـم إن تكلـم فيـه، لا يُلتفـت إلى كلامـه ولا يُعبـأ بـه، ولا يحسـبون مـن طلبـة العلـم إلا مـن يـأتي بالنـص في كل مسـألة يتكلـم فيهـا عـن ظهـر قلـب، يحفـظ النـص كـما يحفـظ الآيـة مـن القـرآن، وإن كان عـلى غـير هـذه الصفـة، بحيـث يقـول مـن الكتـاب أو يقـرأ مـن الكتـاب فإنهـم يسـمونه وراقًـا، وعبارتهـم في حـق مـن لا يحفـظ النـص حسـبما ذُكـر: مـن لم يحفـظ النّـص فهـو لـصّ. «...» فمـذ

خرجت منها، وذلك في جمادى الأخيرة من سنة إحدى وتسعمائة إلى تاريخ هذا الكتاب المتقدّم «٩١٦هـ»، ما رأيت مثلها، ومثل علمائها -فيما أذكر- في سائر مدن المغرب، ولا في تلمسان، ولا بجاية، ولا تونس، ولا إقليم الشام بأسره، ولا بلاد الحجاز، فإني رأيت ذلك كله بالمشاهدة، ولا بمصر على ما تقرر عندي من العلم اليقين بمشاهدة أناس من أهلها، وبرؤيتي لبعض كتب أرباب الوقت الآن، وأحوالهم، واشتغالهم في العلم عرفت ذلك، بينهم وبين من ذُكر بون بعيد، ومن شاهد علِم، ومن ذاق درى، وليس الخبر كالعيان «...».

بل أقول: ورأيت بمدينة حلب من بلاد الشام، سنة خمس وتسعمائة رجلًا من عراق العجم، جاء بدعوى عظيمة عريضة من علم الظاهر، وكان له هناك صيت، وارتفع أمره إلى أن عُرف عند أرباب الدولة، وأجلسوه مجلسهم، وكان عندهم بنظر، ووقعت بينه وبين مفتي المدينة المذكورة وهو أعلمهم مناظرة في مجلس صاحب الدولة، وزعم أنه صنف في العلم، فهو على هذه الطبقة، وبينه وبين من ذكر من علماء فاس ما بين المبتدئ والمنتهي[1]».

والشهادة الثانية للحسن الوزان، الذي عاش في فاس، ودرس بالقرويين مطلع القرن العاشر، وفيها يقول:

«وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، وهو في غاية الكبر، يبلغ محيط دائرته نحو ميل ونصف ميل، وله واحد وثلاثون بابًا كلها كبيرة عالية، وتبلغ المساحة المغطاة فيه نحو مائة وخمسين

(١) مقتطف من رسالة ابن ميمون الموسومة بـ «الرسالة الموجزة في معرفة الإجازة»، «مخطوط بمكتبة القرويين»، نقلًا عن سلوة الأنفاس، ج ١، ص ٧٦.

ذراعًا طوسكانيا طولًا، وأقل بقليل من ثمانين ذراعًا عرضًا، والصومعة التي يؤذن عليها عالية جدًّا كذلك، ويحمل السقف ثمانية وثلاثون قوسًا طولًا، وعشرون عرضًا، وحول بناية الجامع في الواجهات الشرقية والغربية والشمالية أروقة، عرض كل واحد منها ثلاثون ذراعًا، وطوله أربعون ذراعًا، وتوجد تحتها مخازن فيها الزيت وسائر الأشياء الأخرى التي يحتاج إليها الجامع، ويوقد فيه كل ليلة تسعمائة سراج، إذ لكل قوس سراجه، وفي الصف المكوّن من أقواس الوسط، وبالأخص التي تؤدّي إلى المحراب، فيه وحده مائة وخمسون مصباحًا، وهناك ثريات عديدة من البرونز، في كل واحدة منها ألف وخمسمائة مصباح، صنعت من نواقيس بعض المدن المسيحية التي فتحها ملوك فاس، وفي داخل الجامع على طول الجدران يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة، حيث يلقون على الشعب دروسًا تتعلّق بأمور دينه وشريعته، تبتدئ هذه الدروس بعد الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس، ولا تلقى الدروس صيفًا إلا من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحًا، ويتعلّق التعليم «حينئذ» بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة المحمدية، ولا يتولى إلقاءها إلا بعض الناس الخصوصيين، أما الدروس الأخرى، فلا تُسند إلا إلى رجال متضلّعين من هذه المواد، يتقاضون عن دروسهم أجورًا عالية حسنة، وتقدّم لهم الكتب والإنارة، وليس لإمام الجامع وظيفة أخرى غير إقامة الصلاة، إلا أنه يمسك حسابًا مدققًا

للهبـات والأمـوال التـي تقـدّم للجامـع لفائـدة الأطفـال الصغـار، ويـوزّع الإيــرادات الموقوفــة ...[١]».

***

(١) وصف إفريقيا، ج ١، ص ٢٢٤.

القرويّون زمن الدّولة الزّيدانية

على السنن المتبع من لدن كل الدول المغربية السابقة، لم يدخر الزيدانيون جهدًا في الاعتناء بالقرويين، ومن أبرز بصماتهم المعمارية فيها الصحن، فلئن كانت قاعة الصلاة قد حظيت منذ البدايات بالاهتمام والعناية، فقد بقي الصحن على الهيئة التي هُيئ بها زمن المرابطين مع إضافات قليلة، وهو ما دفع أحمد المنصور الذهبي عام ٩٩٦/ ١٥٨٨ لإتحاف الصحن بخصة رخامية عظيمة، ونصب عليها قبة رائعة تبارى الشعراء في التغني بجمالها، وهي القبة الموجودة إلى الآن بشرقي الحصن مقابل الصومعة، وفي عام ١٠١٨/ ١٦١٠ سيعود حفيده عبد الله بن محمد الشيخ ليتحف الصحن بخصة أخرى عليها قبة بديعة مقابلة للقبة التي أنشأها جده، وهي الكائنة غربي الصحن أسفل الصومعة، أما الخزانة العنانية، التي أنشئت زمن المرينيين فسيقوم المنصور بإعادة تهيئتها وتوسعتها والزيادة فيها والإضافة إليها، استجابة للحاجة المتزايدة للطلبة إلى الكتب، وتلك الزيادة هي المسماة الآن بالخزانة العليا.

رغم الاضطرابات التي عرفتها البلاد أواخر الحكم المريني، وآثار الحروب الداخلية التي رافقتها، والتكالب الأجنبي وأثر سقوط غرناطة وتعدد الكوارث الطبيعية، فإن القرويين قد بقيت محافظة

على رسالتها العلمية، وإن اتجه رجالها للمشاركة في الأعمال الجهادية وأنفقت أموالها في الدفاع عن حوزة الوطن وتجهيز المجاهدين في فترات عديدة، ولأن الدين في الإسلام مرتبط بالسياسة فقد كان لعلماء القرويين دور حاسم في رسم سياسة البلاد، ويكفي ذكر بعض المواقف كقيادة الثورة التي أطاحت بالحكم المريني، والتي قادها الخطيب عبد العزيز الورياغلي كما أشرنا، ومرابطة عدة أسماء تخرجت من القرويين على الثغور في العهد المريني - الوطاسي والسعدي، وكموقف علماء القرويين من السعديين عند محاصرتهم لفاس، وكإفتائهم بخلع الشيخ المأمون بعد تحالفه مع النصارى، ومشاركة أسماء منهم في معركة وادي المخازن الخالدة.

وعلى الرغم من أن هاته الفترة تعد فترة ركود علمي بسبب ما اعتور البلاد من فتن وخطوب وقلاقل، وتكالب للأجنبي على سواحلها، وتعرضها لحملات صليبية، إحداها بريه كبيرة، إلا أن القرويين لم تخلو من أعلام كبار، نذكر منهم على سبيل الاستئناس:

الإمام الحافظ الفقيه المحقق المتفنن أبا العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد الله المنجور، المتوفى عام ٩٩٥هـ[١].

محدث المغرب ومسنده الإمام العلامة المتفنن أبا عبد الله محمد بن قاسم القصَّار الغرناطي الفاسي، المتوفى عام ١٠١٢هـ[٢].

(١) دوحة الناشر، ٥٩، ودرة الحجال، ج ١، ص ١٥٦، وصفوة من انتشر، ص ٤٣.

(٢) صفوة من انتشر، ص ٦١، وطبقات الحضيكي، ج ١، ص ٣٣٥، وفهرس الفهارس، ج ٢، ص ٩٦٥.

الإمام العلم القطب الغوث المجاهد، مؤسس الزاوية الفاسية وبطل معركة وادي المخازن أبا المحاسن يوسف بن محمد القصري الفاسي، المتوفى عام ١٠١٣هـ[١].

القاضي الفقيه المحدث الرحال المؤرخ صاحب جذوة الاقتباس ودرة الحجال وغيرهما شهاب الدين أبا العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، الشهير بابن القاضي، المتوفى عام ١٠٢٥هـ[٢]

الإمام الفقيه الزاهد صاحب المرشد المعين أبا محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري، المتوفى عام ١٠٤٠هـ[٣].

الإمام الحافظ الأديب المؤرخ الشهير شهاب الدين أبا العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، المتوفى عام ١٠٤١هـ[٤].

الإمام العلامة الفقيه البحر أبا عبد الله محمد بن أحمد ميّارة الفاسي، المتوفى ١٠٧٢هـ[٥].

---

(١) صفوة من انتشر، ص ٧٨، وشجرة النور الزكية، ج ١، ص ٤٢٨، وللتوسع راجع كتاب: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن.
ومن ذرية الشيخ خرج أئمة فحول وأعلام موسوعيون كبار ملأوا الدنيا علمًا وتأليفًا، كابنه محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت ١٠٥٢هـ)، وحفيدَيه: شيخ الإسلام عبد القادر بن علي الفاسي (ت ١٠٧١هـ)، والعلامة القدوة أحمد بن علي الفاسي (ت١٠٦٢هـ)، وابنَي حفيده: الإمام العلم محمد بن عبد القادر الفاسي (ت١١١٦هـ)، والحافظ عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت ١٠٩٦هـ)، وهلم جرا.

(٢) صفوة من انتشر، ص ١٥٠، والإعلام بمن غبر، ص ١٢٤.

(٣) صفوة من انتشر، ص ١٢٤، وطبقات الحضيكي، ج ١، ص ٥١٢.

(٤) صفوة من انتشر، ص ١٤٣، ونشر المثاني، ج ١، ص ٢٩١، وفهرس الفهارس، ج ٢، ص ٥٧٤، وراجع: كتب المقري المطبوعة، ففيها عنه ما ليس في غيرها.

(٥) صفوة من انتشر، ص ٢٥٠، وللشيخ فهرسة مطبوعة راجعها.

العلامة الفقيه المسند الحجة الأديب الرحالة صاحب الرحلة الحجازية وغيرها أبا سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، المتوفى عام ١٠٩٠هـ[١].

وغير هؤلاء كثير ممن نجد تراجمهم في كل كتب تراجم القرن العاشر والحادي عشر.

***

(١) الإعلام بمن غبر، ص ٢٦٤، وصفوة من انتشر، ص ٣٢٥، وراجع كتب الشيخ ففيها ما ليس في غيرها.

القرويّون زمن الدّولة العلويّة

لم يكن أمام العلويين الكثير لزيادته للقرويين على المستوى المعماري، بقدر ما كان منتظرًا منهم الحفاظ على ما استودعه الأسلاف به وترميمه والعناية به، وقد اتجهت عناية هذه الدولة منذ أيامها الأولى لمجال الإنارة، فجددوا الثريات والعنزة، وزادوا ثلاث عنزات أخرى وبعض النقوش والشمسيات، وصنعوا قبة بديعة حيث عُلق الناقوس الأكبر، أما الصحن فقد أُتحف بخصة رخامية ثالثة أيام المولى إسماعيل، وهي الخصة الكبيرة التي تتوسط الصحن، كما صنعت بعض الساعات الشمسية التي تم توزيعها بين الصحن والسطح، أما الصومعة فقد استمر تزويدها بأحدث آلات التوقيت والتنجيم، إضافة إلى إنشاء ملحقات جديدة، كمحكمة القاضي ومدرسة الشرّاطين، أما المكتبة فقد تم توسيعها مرة أخرى وإتحافها بأنفس الذخائر العلمية من كتب ومخطوطات، وهي اليوم من أعظم المكتبات في العالم الإسلامي بما تحتويه من قطع نادرة، كما كان لهم الفضل في إماطة اللثام عن النقوش المرابطية التي أخفاها أهل فاس عند دخول الموحدين -كما ذكرنا- بعد عملية ترميم واسعة.

كان عدد من سلاطين الدولة العلوية علماء مشاركين، كالمولى الرشيد وسيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان، فكان من الطبيعي

أن تنشط الحركة العلمية بالقرويين في عهدهم وتزدهر، وتكثر الكراسي والمواد التي تدرس فيها كالفقه والحديث والتفسير والموسيقا والرياضيات والهندسة والهيئة والطبيعة والجفر والجبر وغيرها.

«تلك كانت العلوم بفاس، هذه المدينة التي كان في استطاعة المرء أن ينظر إليها على أنها «أثينا» إفريقيا، لكثرة أساتذتها وكثرة الذين ينتسبون إلى العلم فيها، وبالتالي لكثرة مدارسها التي تكتظ بالطلبة»، كما وصفها أحد الرحالة الأجانب[1] خلال هذه الفترة.

كما كان نتيجة للتحولات والمستجدات التي شهدها المغرب ومحيطه أن يدخل بعض الإصلاح إلى تنظيماتها ومقرراتها، أبرزها تلك التي كانت في عهد السلطان محمد بن عبد الله والسلطان محمد بن يوسف، ومن الناحية السياسية كان للقرويين دور مهم ومشاركة فيما عرفته البلاد من أحداث كبيرة، كحرب الثلاثين بين أبناء المولى إسماعيل، واحتلال الجزائر، ومعركة إيسلي، وحرب تطوان، وعزل المولى عبد العزيز وتنصيب أخيه عبد الحفيظ، وأخيرًا الدور الذي لعبه بعض وجوهها في النضال ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني، ثم في تشكيل النخبة المتعلمة التي تولت المناصب بعد نيل البلاد استقلالها السياسي.

وعن أبرز من مر بالقرويين دراسة أو تدريسًا خلال هاته الفترة، فنذكر على سبيل الاستئناس:

(١) الإسباني باديا ليبليش، نقلاً عن التازي، جامع القرويين، ج ٣، ص ٧٢٧.

الإمام العلامة العلم البحر المحقق المتفنن في كل علم، المتفق على أن المغرب لم ينجب بعده مثله، أبا علي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، المتوفى عام ١١٠٢هـ[١].

القاضي الخطيب العلامة الفقيه صاحب النوازل المعروفة باسمه أبا عبد الله محمد بن الحسن المجاصي الغياثي المكناسي، المتوفى عام ١١٠٣هـ[٢].

الإمام العلامة القاضي أبا العباس أحمد بن العربي بن الحاج الفاسي، المتوفى عام ١١٠٩هـ[٣].

الإمام العلامة القدوة أبا محمد عبد السلام بن الطيب القادري، المتوفى عام ١١١٠هـ[٤].

العلامة اللغوي الأديب أبا عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور، المتوفى عام ١١٢٠هـ[٥].

الإمام العلامة المشارك المجاهد الشهيد القدوة أبا محمد عبد السلام بن حمدون گسُّوس، المتوفى عام ١١٢١هـ[٦].

(١) الصفوة بمن انتشر، ص ٣٤٤، ونشر المثاني، ج ٣، ص ٢٥، وفهرس الفهارس، ج ٢، ص ١١٥٤، وتاريخ عجائب الآثار، ج ١، ص ١٢٠، وراجع كتب الشيخ ففيها ما ليس في غيرها.

(٢) إتحاف أعلام الناس، ج ٤، ص ٦٠.

(٣) شجرة النور الزكية، ج ١، ص ٤٧٢، وفهرس الفهارس، ج ١، ص ١١٧.

(٤) نشر المثاني، ج ٣، ص ٨٦، وسلوة الأنفاس، ج ٢، ص ٣٩٢.

(٥) نشر المثاني، ج ٣، ص ٢٠١، وسلوة الأنفاس، ج ٣، ص ٢٢٠، وشجرة النور الزكية، ج ١، ص ٤٧٦.

(٦) نشر المثاني، ج ٣، ص ٢٠٥، وشجرة النور الزكية، ج ١، ص ٤٧٧.
وقد عاش الشيخ محنة عظيمة نتجت عن معارضته لمشروع السلطان إسماعيل بتمليك الحراطين؛ لما تضمنه من ظلم وقهر واستعباد، ومخالفته للشريعة الإسلامية، وتجرع في سبيل موقفه المشهود هو وأسرته ألوانًا من الإهانة والعذاب. انظر: تاريخ الضعيف، ص ٨٥، ونشر المثاني، ج ٣، ص ٢٠٥، وما يليها، والاستقصا ج ٧، ص

الإمام الفقيه القطب الشاعر الصوفي الكبير محمد بن محمد بن عبد الواحد بن يحيى العلمي الشهير بالحراق، المتوفى عام ١٢٦١هـ[١].

الإمام العلامة المفتي النوازلي أبا عبد الله محمد بن عبد السلام بناني، المتوفى عام ١١٦٣هـ[٢].

مسند تونس وعالمها ومفتيها أبا العباس أحمد بن حسن بن محمد المكودي الورشاني، المتوفى عام ١١٦٩هـ[٣].

الإمام الحافظ المحدث أبا العلاء إدريس بن أحمد بن عبد الرحمن العراقي الحسيني الفاسي، المتوفى عام ١١٨٤هـ[٤].

شيخ شيوخ المغرب في زمانه المحدث الفقيه المفتي المتفنن في كل علم أبا عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن سودة، المتوفى عام ١٢٠٩هـ[٥].

العارف بالله الشهير العلامة المفسر صاحب التآليف البديعة أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجيبة الحسني

٩٤، وقد نال غيره من علماء فاس من موقفهم المعارض لاستعباد الحراطين والسود الأحرار محنة عظيمة، نجا منها من شرعن للسلطة مشروعها، وقُبض على من ثبت وامتنع وعذب وأهين وقتل، كما حدث مع الشيخ عبد السلام گسُّوس، وقد ترك الشيخ شهادة كتبها بخط يده قبل أيام من قتله يؤكد فيها ثباته وتشبثه بموقفه اقتداء بأئمة السلف، أوردها القادري والضعيف إلى جانب أشعار رثاه بها لتلميذه علي بن مصباح.

(١) سلوة الأنفاس، ج ١، ص ٣٨٩، والدرر البهية، ج ٢، ص ٩٦، والمطرب بمشاهير أولياء المغرب، ص ٢٢٩.

(٢) نشر المثاني، ج ٤، ص ٨٠، والفكر السامي، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٣) الفكر السامي، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٤) راجع فهرسته وهي مطبوعة.

(٥) الفكر السامي، ج ٢، ص ٣٥٠، وسلوة الأنفاس، ج ١، ص ١١٨، وتاريخ عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٤٩.

الأنجـري، المتـوفى عـام ١٢٢٤هـ[١].

شـيخ الجماعـة العلامـة الحافـظ المفـسر أبـا عبـد الله محمـد الطيـب بـن عبـد المجيـد بـن عبـد السـلام بـن كـيران، المتـوفى عـام ١٢٢٧هـ[٢].

الوزيـر السـفير المـؤرخ الرحالـة أبـا عبـد الله محمـد بلقاسـم بـن أحمـد بـن عـلي بـن إبراهيـم الزيـاني، المتـوفى عـام ١٢٤٩هـ[٣].

مؤسـس الطريقـة الصوفيـة السنوسـية، وجـد الأسرة الملكيـة الليبيـة الإمـام العـارف المشـهور بالسـنوسي الكبـير أبـا عبـد الله محمـد بـن عـلي السـنوسي الخطـابي الحسـني، المتـوفى عـام ١٢٧٦هـ[٤].

شـيخ الجماعـة العلامـة المحقـق المدقـق الحافـظ أبـا عبـد الله محمـد بـن المـدني بـن عـلي گنـون الفـاسي، المتـوفى عـام ١٣٠٢هـ[٥].

الإمـام العلامـة المحقـق المحـدث أبـا المواهـب جعفـر بـن إدريـس الكتـاني الحسـني، المتـوفى عـام ١٣٢٣هـ[٦].

المصلـح المجـدد العلامـة القطـب حجـة الإسـلام الشـهيد أبـا الفيـض محمـد بـن عبـد الكبـير بـن محمـد الكتـاني، المتـوفى عـام ١٣٢٧هـ[٧].

(١) للشيخ فهرسة مطبوعة راجعها.

(٢) سلوة الأنفاس، ج ٣، ص ٣، وإتحاف المطالع، ج ١، ص ١٠٨، وشجرة النور الزكية، ج ١، ص ٥٣٩.

(٣) راجع رحلته المسماة بالترجمانة الكبرى في إخبار المعمور برًّا وبحرًا.

(٤) شجرة النور الزكية، ج ١، ص ٥٧٠.

(٥) فهرس الفهارس، ج ١، ص ٤٩٨، وإتحاف المطالع، ج ١، ص ٢٨٨، والنبوغ المغربي، ج ١، ص ٢٩٧.

(٦) فهرس الفهارس، ج ١، ص ١٨٦، والفكر السامي، ج ٢، ص ٣٦٧، وللشيخ فهرسة مطبوعة راجعها، وقد نبغ في العائلة الكتانية أعلام كبار مشاهير خُصصت لتراجمهم كتب مفردة.

(٧) راجع: ترجمة الشيخ محمد الكتاني المسماة: أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني، ففيها بالتفصيل مسيرة هاته الشخصية العظيمة التي رزئ المغرب فيها رزية فادحة.

العلامة النوازلي صاحب المعيار الجديد أبا عيسى محمد المهدي بن محمد العمراني الوزاني، المتوفى عام ١٣٤٢هـ[١].

الحافظ الكبير العلامة الفقيه المحدث المؤرخ موسوعة زمانه محمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الكتاني، المتوفى عام ١٣٨٢هـ[٢].

الزعيم الملهم، أسد الريف، الأمير مولاي موحند بن عبد الكريم الخطابي الورياغلي، المتوفى عام ١٣٨٢هـ[٣].

العلامة المحقق المؤرخ صاحب المعسول وغيره محمد المختار بن علي بن أحمد السوسي الإلغي، المتوفى عام ١٣٨٣هـ[٤].

وغير هؤلاء كثير.

***

(١) راجع مقدمة كتابه: «النوازل الجديدة الكبرى».
(٢) راجع كتب الشيخ.
(٣) الكتب المؤلفة في سيرة الأمير أكثر من عدها.
(٤) راجع كتب الشيخ.

قائمة المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم «العد المدني».

٢) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان «ت ١٣٦٥»، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

٣) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام بن سودة «ت ١٤٠٠هـ»، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧/ ١٩٩٧.

٤) آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني «ت ٦٨٢هـ»، دار صادر - بيروت.

٥) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب «ت ٧٧٦هـ»، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٦) أخبار الدولتين الموحدية والحفصية، أبو عبد الله الزركشي «ت أواخر ق ٩هـ»، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة - تونس، الطبعة الثانية ١٩٦٦.

٧) الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مراكشي مجهول من أهل القرن السادس الهجري، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة.

٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري «ت ١٣١٥هـ»، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء ١٤١٨/ ١٩٩٧.

٩) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، إسماعيل بن الأحمر «ت ٨٠٨هـ»، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦/ ١٩٧٦.

١٠) الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر، عبد الله بن محمد الفاسي «ت ١١٣١هـ»، تحقيق فاطمة نافع، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

١١) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابن أبي زرع الفاسي «ت ٧٢٦هـ»، دار المنصور للطباعة - الرباط ١٩٧٢.

١٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٣٨٤/ ١٩٦٥.

١٣) البلدان، أحمد بن إسحاق اليعقوبي «ت بعد ٢٩٢هـ»، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي «ت نحو ٦٩٥هـ»، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣. «بالنسبة للجزء الأول والثاني».

١٥) تاريخ ابن خلدون «ت ٨٠٨هـ»، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، الطبعة ١٤٢١/ ٢٠٠١.

١٦) تاريخ إفريقية والمغرب، الرقيق القيرواني «ت ٤٢٥هـ»، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، الطبعة الأولى ١٤١٤/ ١٩٩٤.

١٧) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨هـ» تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣/ ١٩٩٣.

١٨) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعارف - الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

١٩) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي «ت ١٢٣٧هـ» دار الجيل - بيروت.

٢٠) ترجمة الشيخ محمد الكتاني المسماة: أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني، محمد الباقر الكتاني «ت ١٣٨٤هـ»، تحقيق نور الهدى الكتاني، مركز التراث الثقافي - الدار البيضاء، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦/ ٢٠٠٥.

٢١) التشوف إلى رجال التصوف، ابن الزيات التادلي «ت ٦١٧هـ»، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب - الرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

٢٢) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار البلنسي «ت ٦٥٨هـ»، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة - لبنان، ١٤١٥/ ١٩٩٥.

٢٣) ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي «ت ٩٣٨هـ»، تحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الاسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٢٤) جامع القرويين، عبد الهادي التازي، دار نشر المعرفة - الرباط، الطبعة الثانية ٢٠٠٠.

٢٥) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ابن القاضي المكناسي «ت ١٠٢٥هـ»، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط ١٩٧٣.

٢٦) جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الجزنائي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية ١٩٩١.

٢٧) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، لمؤلف مجهول «توفي بعد ٣٧٢هـ»، ترجمه عن الفارسية وحققه، السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر - القاهرة، طبعة ١٤٢٣هـ.

٢٨) درّة الحجال فى أسماء الرّجال، ابن القاضي المكناسى «ت ١٠٢٥هـ»، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث - القاهرة، المكتبة العتيقة - تونس، الطبعة الأولى ١٣٩١/ ١٩٧١.

٢٩) الدرر البهية والجواهر النبوية، إدريس الفضيلي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ١٤٢٠/ ١٩٩٩.

٣٠) دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ابن عسكر الشفشاوني «ت ٩٨٦هـ»، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للأليف والترجمة والنشر - الرباط، الطبعة الثانية ١٣٩٧/ ١٩٧٧.

٣١) ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي بن الغزي «ت ١١٦٧هـ»، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١/ ١٩٩٠.

٣٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، تحقيق محمد بن شريفة وإحسان عباس وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - تونس، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

٣٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي «ت بعد ٤٥٣هـ»، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤/ ١٩٩٤.

٣٤) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني «ت ١٣٤٥هـ»، تحقيق «ثلاثة كتانيين»، دار الثقافة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٥/ ٢٠٠٤.

٣٥) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

٣٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف «ت ١٣٦٠هـ»، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

٣٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي «ت ١٠٨٩هـ»، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير - دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

٣٨) صحيح البخاري «ت ٢٥٦هـ»، تحقيق مصطفى البغا، الناشر: دار ابن كثير/ دار اليمامة - دمشق، الطبعة الخامسة ١٣١٣/ ١٩٩٣.

٣٩) صحيح مسلم «ت ٢٦١هـ»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٤/ ١٩٥٥.

٤٠) صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، الصغير الإفراني «ت تقريبًا ١١٥٤هـ»، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي - الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٥/ ٢٠٠٤.

٤١) صورة الأرض، ابن حوقل «ت بعد ٣٦٧هـ»، ليدن، الطبعة الثانية ١٩٢٨.

٤٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي «ت ٩٠٢هـ»، مكتبة القدسي - القاهرة، طبعة ١٣٥٣هـ.

٤٣) طبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي «ت ١١٨٩هـ»، تحقيق أحمد بومزكو، بمطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٧/ ٢٠٠٦.

٤٤) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ابن سعيد المغربي الأندلسي «ت ٦٨٥هـ»، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف - مصر.

٤٥) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الفاسي «ت ١٣٧٦هـ»، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦/ ١٩٩٥.

٤٦) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، محمد عبد الحي الكتاني «ت ١٣٨٢هـ»، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٤٧) فهرسة الحافظ أبي العلاء إدريس العراقي الفاسي «ت ١١٨٤هـ»، تحقيق بدر العمراني الطنجي، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣٠/ ٢٠٠٩.

٤٨) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي «ت ١٠٣٦هـ»، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، طبعة عام ١٤٢١/ ٢٠٠٠.

٤٩) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدين محمد بن محمد الغزي «ت ١٠٦١هـ»، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨/ ١٩٩٧.

٥٠) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، ابن عطاء الله السكندري «ت ٧٠٩هـ»، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة ٢٠١٧.

٥١) ماضي القرويين ومستقبلها، محمد عبد الحي الكتاني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

٥٢) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، ابن حجر العسقلاني «ت ٨٥٢هـ»، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣/ ١٩٩٢.

٥٣) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن «ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب»، محمد العربي بن يوسف الفاسي «ت ١٠٥٢هـ»، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن بن الجد.

٥٤) المسالك والممالك، أبو عبيد البكري ت ٤٨٧هـ»، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤/ ٢٠٠٣.

٥٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل «ت ٢٤١هـ»، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١/ ٢٠٠١.

٥٦) المطرب بمشاهير أولياء المغرب، عبد الله التليدي، دار الأمان - الرباط، الطبعة الرابعة ١٤٢٤/ ٢٠٠٣.

٥٧) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أبو زيد الدباغ «ت ٦٩٦هـ»، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

٥٨) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي «ت ٦٤٧هـ»، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦/ ٢٠٠٦.

٥٩) معجم البلدان، ياقوت الحموي «ت ٦٢٦هـ» دار صادر - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥.

٦٠) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي «ت ٥٦٠هـ»، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، طبعة ١٤٢٢/ ٢٠٠٢.

٦١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي «ت ١٠٣٦هـ»، تحقيق عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب - طرابلس، الطبعة الثانية ٢٠٠٠.

٦٢) وصف إفريقيا، الحسن الوزان الفاسي، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨٣.

***

الفهرس

إهداء **٥**
عُظْمَى النِّسَاءِ ٧
تقديم **١٣**
السّرديّة ١٥
شخصيّة فذّة ٦٧
العبرة ٧٣
تحرّي الحلال في بناء المسجد ٧٥
محمد بن عبد الله الفهريّ ٧٧
مريم الفهريّة ٧٩
الفهريّون ببلاد المغرب ٨١
القرويّون، الجامع الجامعة ٩١
القرويّون زمن الإمارة الإدريسيّة ٩٥
القرويّون زمن الإمارة الزّناتيّة ٩٧
القرويّون زمن الدّولة المرابطيّة ١٠١
القرويّون زمن الخلافة الموحديّة ١٠٥
القرويّون زمن الدّولة المرينيّة – الوطّاسية ١١٣
القرويّون زمن الدّولة الزّيدانية ١٢٣
القرويّون زمن الدّولة العلويّة ١٢٧
قائمة المصادر والمراجع **١٣٣**